خلفية تاريخية مستفيضة

يقول المؤرخ الحجة فى محاكم التفتيش هنرى تشارلس لى إنه لا سبيل إلى فصل الهرطقة فى إيطاليا عن مجريات الحياة السياسية هناك، فهما يكادان يكونان وجهين لعملة واحدة. كانت الفوضى تضرب أطنابها فى ربوع إيطاليا، وزاد فى حدتها أن صراعًا هائلًا نشب بين سعى الإمبراطورية الرومانية إلى بسط سيطرتها على جميع أرجاء البلاد وبين سعى الكرسى الباباوى الحثيث إلى بسط نفوذه الزمنى على شبه الجزيرة الإيطالية، وكان ذلك أشد ما يكون وضوحًا فى الفترة من ١١٥٢ حتى ١٢٥٤، بينما كان الأباطرة الرومان يبذلون قصارى جهدهم فى ضم أطراف إمبراطوريتهم ولم شملها، كان بابا روما مشغولًا بتحريض المدن والأقاليم المختلفة على شق عصا الطاعة عليهم، وإعلان استقلالها عنهم، وكان من الطبيعى فى هذا الجو من التوتر والصراع والشحناء أن يتقاتل أنصار الأباطرة مع أنصار الباباوات قتالًا شرسًا وضاريًا، ولكن هذا الصراع الدامى شاهد من آن إلى آخر نوعًا من المصالحة والتوافق المؤقت، تمليه الضرورة والظروف السياسية والتاريخية مثلما حدث فى عام ١١٧٧، عندما نجحت لومباردى [شمال إيطاليا] فى دحر بارباروسا فى ميدان الوغى فى ليجناند، ورغم فترات الهدوء المؤقت فإن الصراع والتوتر كانا السمة الأساسية التى اتسمت بها علاقة البلدان الإيطالية بعضها ببعض.

وهكذا كان الجو مواتيًا إلى أبعد الحدود لانتشار الهرطقة. كان الإكليروس غارقين لآذانهم فى الملذات والاهتمام بعرض الدنيا. وبلغ الصراع ذروته بين البابا ألكسندر الثالث (١١٥٩ ـ ١١٨١) والإمبراطور فردريك الأول الذى تولى مقاليد السلطة فى عام ١١٥٢ والذى قام بتنصيب أربعة من أعوانه بهدف مناوأة سلطة البابا، هم: ڤيكتور، وباسكال، وكاليكستوس، وإينوسنت. هذا الصراع الدامى على النفوذ بين السلطتين الزمنية والدينية جعل من الطبيعى للغاية أن تجد الهرطقة والانشقاق الدينى مرتعًا خصبًا. ورغم انتصار الكرسى الباباوى على مناوئيه، فإنه لم يتمكن من بسط نفوذه بالكامل على البلاد. وكان من الطبيعى للغاية أن يستغل المهرطقون فرصة الفوضى والانقسام كى يطلوا برؤوسهم ويلعبوا دورًا فى الصراع على السلطة بتأييد طرف ضد الطرف

الآخر. وعندما استن الباباوان أونوريوس الثالث (١٢١٦ ـ ١٢٢٧)، وجريجورى التاسع (١٢٢٧ ـ ١٢٤١) والإمبراطور فردريك الثانى صيغة للاضطهاد واضحة ومحددة المعالم، أصبح الأمراء والنبلاء والهراطقة الذين يشجعهم هؤلاء الأمراء والنبلاء للنيل من البابا فى صف واحد.

وبالنظر إلى زيادة عدد المهرطقين فقد كانوا يتمتعون بنوع من النفوذ السياسى مما جرّأ الكثيرين منهم على الجهر بهرطقتهم، فعندما حضر الملك أوتو الرابع إلى روما لتتويجه عام ١٢٠٩ بيدا لبابا إينوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) اندهش رجال الكنيسة المصاحبون له من رؤية المدارس هناك تعلم المذهب المانى جهرًا وبحرية تحت بصر ورقابة البابا ودون اعتراض من جانب السلطة. فضلًا على أن طائفة الرهبان الدومنيكان فى بادئ الأمر ما انفكت تجادل الهراطقة فى أكثر مدن إيطاليا ازدحامًا واكتظاظًا بالسكان بغية هدايتهم رغم تحديهم لها، ونحن نرى فى فبراير عام ١٢١٠ أن أوتو يضطر إلى إصدار أوامره إلى قضاته كى يفرضوا الحظر على المهرطقين الكاثاريين الذين عصوا أمر الأسقف بعودتهم إلى الكنيسة.

يمكن تقسيم الهرطقة الإيطالية إلى نوعين رئيسيين، هما: الهرطقة الكاثارية (أو التطهيرية) والهرطقة الوالديسيانية. وقد أشرت إلى انتشار هرطقات أخرى فى إيطاليا فى الفترة من ١١٦٠ إلى ١٢١٦ فى كتابى «الهرطقة فى الغرب» وهى:

١ ـ هرطقة طائفة السبيرونيين نسبة إلى هيجو سبيرونى.

٢ ـ طائفة الهيومبلياتى أو الداعين إلى بساطة الملبس والاتضاع.

٣ ـ هرطقة الباسجيان.

وسوف أركز هنا على الهرطقتين الكاثارية والوالديسيانية باعتبارهما من أكثر الهرطقات شيوعًا ومن أخطرها فى أوروبا.

ظهرت الهرطقة الكاثارية فى إقليم لومباردى بإيطاليا فى العقدين الأول والثانى من القرن الثانى عشر، وتدعو الهرطقة الوالديسيانية إلى شق عصا الطاعة على البابا وكنيسته معًا.

انتشرت كلتا الهرطقتين فى ميلانو وفى مناطق كثيرة أخرى من إيطاليا مثل فلورنسا. غير أن لومباردى كانت محور تمركز المهرطقين الكاثاريين؛ حيث انطلقت من هناك لتجتاح سائر البلاد الأوروبية. وساعد على ذلك أن لومباردى ظلت لأكثر من نصف قرن ملجأ للمهرطقين الفارين من لانجويدوك جنوب فرنسا، التى صارت جزءًا من فرنسا فيما بعد، فعلى سبيل المثال فى عام ١٢٤٠ اتهم شخص من هناك يدعى يفوناربون بالهرطقة زورًا وبهتانًا، فهرب إلى إيطاليا التى

اعتبرته شهيدًا. وهناك خالط هذا الرجل المهرطقين وعرفهم عن كثب، وأرسل خطابًا إلى جيرود رئيس أساقفة بوردو الفرنسية، وصف له بكل دقة تنظيم الكاثاريين وانتشارهم فى إيطاليا وكيف أنهم كانوا يرسلون شبابهم من لومباردى وتوسكانيا إلى باريس للتبحر فى دراسة المنطق واللاهوت حتى يتمكنوا من الدفاع عن آرائهم المهرطقة بنجاح. وإذا كانت لومباردى منشأ الهرطقة الكاثارية فإن ميلانو تعتبر حاضرتها التى وفدت إليها كل البعوث الكاثارية من كل حدب وصوب للالتقاء وتلقى التعليمات الجديدة التى يصدرها كل عام التنظيم الكاثارى لتمكين أعضائه الجوالة من تَعَرُّف بيوت إخوانهم؛ كى يحلوا عليها وهم آمنون على حياتهم.

الهرطقة والبابا إينوسنت الثالث

١١٩٨ ــ ١٢١٦

وفى عام ١٢١٢ حذر البابا إينوسنت الثالث مدينة ميلانو المهرطقة بعدم التمادى فى الغى والضلال مهددًا المهرطقين بالويل والثبور وعظائم الأمور، ولكن تهديده كان بدون جدوى. ولم يجد البابا من ملوك أوروبا وأباطرتها من هو مستعد لتنفيذ تهديده الأجوف. وفى ألمانيا حيث كان الإمبراطور فريدريك الثانى يتولى سدة العرش، طلب البابا جريجورى التاسع من هذا الإمبراطور الچيرمانى أن يغزو سوريا؛ كى يرد جيوش المسلمين على أعقابها. غير أن فردريك الثانى رفض الاستجابة إلى طلبه بحجة أن محق المهرطقين الكاثاريين فى ميلانو أهم من الانتصار على المسلمين الكفرة لأنهم أشد منهم خطرًا على الكنيسة.

ويبدو أن المهرطقين الوالديسيانيين كانوا يمثلون خطرًا شبيهًا بهرطقة الكاثاريين، فقد شيدوا فى ميلانو مدرسة تقوم بتدريس مذهبهم. ولكن رئيس الأساقفة تصدى لها واستطاع تدميرها عام ١٢٠٩، ودعاهم إلى الهداية فى حظيرة الكنيسة، فوافقوا على التصالح معها شريطة أن يرد إليهم رئيس الأساقفة الكنيس الذى انتزعه منهم. وتدل شواهد الأمور على استمرار ازدهار الهرطقة الوالديسيانية. وقد اعترف الوالديسيانيون الذين أحرقوا فى ستراسبورج بفرنسا عام ١٢١٢ بأن رئيسهم كان يعيش فى ميلانو وأنهم اعتادوا أن يجمعوا المال ويرسلوه إليه.

وقد وجد المهرطقون الوالديسيانيون ملجأ آمنًا فى وديان جبال الألب. ورغم قسوة الحياة فى تلك المناطق الوعرة، فقد بذلوا جهدًا جهيدًا؛ كى يتمكنوا من إقامة أود الحياة. وهناك تناسلوا وتكاثروا حتى استطاعوا أن يملؤوا وديان لوسرنا وأنجروجنا وسان مارتينو وبيروسا.

وفى عام ١٢١٠، أصاب الفزع چياكومو دى كاريسبيو أسقف تورين من انتشار الهرطقة الوالديسيانية فى أسقفيته، فكتب إلى الإمبراطور أوتو الرابع، يطلب منه القضاء عليها، ولكن اكتفى الإمبراطور بأن نصحه بتوقيع أقسى العقاب عليهم، فأسقط فى يد الأسقف المغلوب على أمره؛ لأنه لم يكن يملك أية قوة ردع تضع قوانين الهرطقة موضع التنفيذ. وأيضًا عجز دير ريباى عن السيطرة على المهرطقين الوالديسيانيين، فأرسل إلى توماسكو الأول كونت ساڤوى يستنجد به، فأصدر الكونت أمرًا بفرض غرامة قدرها عشرة سولات على المهرطقين. وهو عقاب عديم الجدوى والأثر، الأمر الذى جعل المهرطقين فى منطقة جبال الألب أشد صلابة وقدرة على التحمل ومواصلة الهرطقة عن ذى قبل.

وعلى الرغم من أن الوالديسيانيين فى لومباردى الإيطالية يعترفون بانحدارهم من الطائفة المعروفة باسم فقراء ليون الفرنسية، فقد طرأ على الجناح الإيطالى فهم تطور مغاير عن الأصل، ولهذا عقد فى عام ١٢١٨ مؤتمر فى بلدة برجامو تقابل فيه الجناح الإيطالى من الوالديسيانيين مع الجناح الفرنسى، ولكن اجتماعهما لم يسفر عن إزالة أوجه الخلاف بين الجناحين. وفى عام ١٢٣٠ أرسل الوالديسيانيون فى لومباردى إلى أشقائهم فى ألمانيا بيانًا يحتوى على أوجه الخلاف بين الطائفتين. وإذا دل هذا على شىء فإنما يدل على أن قنوات الاتصال ظلت مفتوحة بيسر وسهولة بين الوالديسيانيين فى جميع أنحاء القارة الأوروپية.

وأيضًا تدل القلاقل التى حدثت فى بياسنزا عام ١٢٠٤ على ضراوة المهرطقين وشراستهم وعلى عطف كثير من الناس عليهم وتأييدهم لهم، وكذلك على عجز الكنيسة عن مقاومتهم فى ظل الظروف السياسية السائدة والصراعات المحتدمة بين الكرسى الباباوى من ناحية وملوك أوروپا وأباطرتها من ناحية أخرى.. وفى بياسنزا بلغ المهرطقون الوالديسيانيون حدًّا من القوة والبأس جعلهم يفتعلون شجارًا مع الأسقف جريموريو، أدى إلى طرد هذا الأسقف وجميع رجال الإكليروس ونفيهم إلى كريمونا، ولكن حدث فى عام ١٢٠٥ عراك مع قساوسة كريمونا فتم نفيهم للمرة الثانية إلى كاستيل ـ أدكوانا، وهكذا أصبحت مدينة بياسنزا بدون قسيس معتمد فى الكنيسة لمدة ثلاثة أعوام ونصف العام، مما أدى إلى حرمان أهلها من إقامة القداديس والشعائر الكاثوليكية. ولكن الشعب استقبل هذا الحرمان بعدم اكتراث مما يدل على أن سيطرة الكنيسة الكاثوليكية عليه كانت فى منتهى الضعف والهزال، ولما علم البابا إينوسنت الثالث بالأمر غضب وأرسل فى أكتوبر ١٢٠٦ مبعوثين لعلاج هذه المشكلة مهددًا الشعب بأنه إذا لم يكف عن إثارة القلاقل للكنيسة فسوف يقوم بتقسيم الأسقفية وتوزيع صلاحياتها على الأسقفيات المجاورة.

ولكن الأهالى لم يأبهوا بتهديده ووعيده ورفضوا الإذعان لشروطه بتعويض الأسقف عما لحق به من ضرر. وبعد أن أضاع المبعوثون ستة شهور فى مفاوضات لا طائل من ورائها قرروا الرحيل، واضطرت الكنيسة إلى التنازل عن الكثير من شروطها حتى نجحت بعد لأى فى يوليه عام ١٢٠٧ فى إجراء مصالحة بين الأهالى والكنيسة، وهكذا تمكن القساوسة المطرودون من العودة من المنفى. وفى تلك الفترة تقريبًا دخل البابا إينوسنت فى جدل محتدم مع أهل تريفيزو حتى استطاع إقناعهم بطرد المهرطقين من مدينتهم. وفى هذه المرة عدل البابا من أسلوب التهديد والوعيد وألحف فى رجائهم الاحتفاظ بعقيدتهم الكاثوليكية واعدًا إياهم بأن يتولى أسقفهم إصلاح الإعوجاج الذى كان السبب فى شكوى الناس وضجرهم وتمردهم عليه. وبطبيعة الحال استمد الهراطقة من ضعف الكنيسة قوة، وزاد من هوان الكنيسة أنها دخلت فى صراع مع المسلمين وخشيت أن يتحالف الهراطقة مع أعدائهم.

الهرطقة والبابا أونوريوس الثالث

١٢١٦ ــ ١٢٢٧

وعندما استطاع البابا أونوريوس الثالث حمل الإمبراطور فردريك الثانى بمناسبة تتويجه على العرش على إصدار مرسوم يتصدى للهرطقة، دخل فى روعه خطأ أن هذا سوف يتحقق على أرض الواقع وأن الهرطقة فى سبيلها إلى الزوال. ولكنه اكتشف لخيبة أمله أن الإمبراطور فردريك يراوغ ولا ينوى بالفعل استئصال شأفة الهرطقة. وتميز حكم الإمبراطور من أوله إلى آخره بصراعه المرير الصريح أحيانًا والمستتر أحيانًا أخرى ضد الكرسى الباباوى. فضلًا على اتصافه بقدر من الحرية الفكرية التى لا يمكن لبابا روما أن يسمح بها. ونحن نشاهد فى عام ١٢٢١ أن إيزلين دا رومانو كان لا يخفى حمايته للمهرطقين. وعندما تعرض إنجهيرامو دى ماسيراتا لاضطهاد المواطنين له بسبب قيامه بتسليم بعض أقاربهم للحرق، فإنه فضل أن يطلب الحماية من البابا أو نوريوس الثالث ولم يفكر فى طلبها من الإمبراطور الذى اشتهر بالتسامح مع المهرطقين.

وحين ضاق البابا بهذا التساهل مع المارقين، قام عام ١٢٢٤ بتعيين أسقفى بريسكيا وموديا كمندوبين له وخولهما سلطة الإجهاز على الهراطقة فى إقليم لومبارديا، وبذلك يكون هذان المندوبان فى طليعة المحققين الذين مهدوا شيئًا فشيئًا إلى إنشاء محاكم التفتيش. واضطلع أسقف موديا بمهمة تحويل الوثنيين فى پروسيا إلى الدين المسيحى، ولهذا السبب حل أسقف ريمينى محله حتى يستطيع التفرغ لعمله، ولكن مندوبى البابا بدآ بتطهير بريسكيا من الهرطقة التى كان

أسقفها على علم بخباياها، وأمر الأسقفان بتدمير المنازل التى يعرفان أن المهرطقين يستخدمونها فى نفث سمومهم. غير أن بعض الأهالى الذين انقسموا فرقًا وشيعًا قاوموا هذه الإجراءات بالتمرد المسلح والاعتداء على عدة كنائس وحرقها، كما قام المهرطقون بإلقاء المشاعل داعين إلى عقاب كل أتباع الكنيسة الرومانية بالطرد منها، ولم يكن من السهل على أنصار الكنيسة أن يتغلبوا على الهراطقة المناوئين لهم، فضلًا على أن البابا أونوريوس عامل المهرطقين المهزومين بالرأفة، وبعد أن قام أنصار البابا بتسوية منازل زعماء التمرد بالأرض وعدم السماح بإعادة بنائها، جاءت أحكامهم على بقية المتمردين أقل غلظة وقسوة، وفرضت على المهرطقين فى لومباردى وتريفيجيانا غرامة قيمتها ثلاثمائة وثلاثون ليرة لتعويض الكاثوليك عن خسارتهم، وتململ أهل لومباردى من هذا العقاب المخفف واعترضوا عليه، فتدخلت مدينة ميلانو كى تشفع لهم للتخفيف عن كاهلهم أكثر وأكثر، واستجاب البابا أنوريوس لهذه الشفاعة وكلف أساقفته فى ١ مايو ١٢٢٨ أن يراعوا ظروفهم ويستخدموا حصافتهم لتخفيف العقوبات المفروضة عليهم، ولكن لم يمض عامان حتى عين الراهب الدومنيكانى جوالا فى عام ١٢٣٠ أسقفًا على بريسكيا، فاتبع سياسة واضحة التشدد ومغايرة للسياسة المتسامحة السابقة. ونجح هذا الأسقف الجديد فى إحياء القانون الذى استنه الإمبراطور فردريك فى مارس ١٢٢٤، والذى ينص على حرق المهرطق أو قطع لسانه، كما أنه أرغم المسؤولين عن القسم بوضع هذا القانون موضع التنفيذ.

الهرطقة والبابا جريجورى التاسع

١٢٢٧ ــ ١٢٤١

وأول عمل إيمانى: الحبس أو الحرق

كان البابا جريجورى التاسع الذى اعتلى كرسى الباباوية عام ١٢٢٧ يفوق البابا أونوريوس فى تشدده فى التصدى للهرطقة. فلم يمض على توليه ثلاثة أسابيع حتى تصالح مع الإمبراطور فردريك الثانى وسلطة لومباردى. ونص هذا الصلح على القضاء على الهرطقة، ومن ناحيته قام البابا جريجورى بطريقته الآمرة الناهية بمطالبة أهل لومباردى بأداء واجبهم ونبههم إلى أن الجهود التى كانوا يبذلونها لاستئصال شأفة الهرطقة لم تكن جهودًا جادة بل مجرد تظاهر وادعاء بطردهم من البلاد ثم الاتفاق معهم فى السر على عودتهم إليها والعيش فيها فى أمن وطمأنينة، حتى الغرامات المفروضة على المهرطقين كانت ترد إليهم فى الخفاء. وأضاف البابا جريجورى التاسع أن هذا الوضع هو الذى أدى إلى ازدهار الهرطقة وإلى إصابة الكنيسة أمامها بالشلل. ولا

غرو فقد كانت السلطات فى لومباردى تسمح للمهرطقين بالدعوة علنًا وجهارًا إلى هرطقاتهم. وحذر جريجورى التاسع أهل لومباردى من التمادى فى غيهم، وطلب إليهم تنفيذ القوانين الخاصة بحظر الهرطقة وهددهم بأوخم العواقب إذا ظلوا سادرين فى غيهم وضلالهم، ولكن الظروف السياسية المواتية لانتشار الهرطقة حولت تحذيرات البابا إلى تهديدات جوفاء. ورغم فشل جهود البابا جريجورى التاسع فى قمع الهرطقة فى لومباردى فإنه نجح فى وضع حجر الأساس لمحاكم التفتيش فى فلورنسا والمناطق القريبة من كرسى الباباوية، وعندما اكتشف هذا البابا أن الهرطقة تعلن عن نفسها فى جسارة وجرأة فى مدينة روما مقر الكرسى الباباوى، عقد العزم على التصدى لها بكل حزم وقوة، وأغلب الظن أن أول عمل إيمانى فى إيطاليا سجلته الوثائق هو العمل الذى أصدره السيناتور أنيبالدو عند باب سانتا ماريا ماجيورى، حيث تم إحراق المهرطقين أو حبسهم حبسًا مؤبدًا. وانتهز البابا جريجورى هذا الفرصة كى يصدر مرسومه الذى أصبح أساس العمل فى محاكم التفتيش. غير أن نجاح البابا فى الأماكن القريبة من مقره الباباوى لم ينسه طموحه فى استئصال الهرطقة فى المناطق النائية عن روما، ولهذا حث الإمبراطور فردريك على تشديد النكير على الهرطقة التى تغلغلت فى لومباردى، فضلًا على أنه مارس ضغوطًا على السلطات الحاكمة فى صقلية حتى جعلها تصدر تشريعات متشددة مع الهراطقة إلى جانب صدور مراسيم راقينا فى عام ١٢٣٢، وبعد الجفوة والعداء حدث تقارب عظيم بين البابا جريجورى التاسع وفردريك الثانى، وأصبحت العلاقة بينهما سمنًا على عسل، وكذلك طلب البابا من ميلانو الاقتداء بسياسة أنيبالدو المتشددة مع المهرطقين فاستجابت ميلانو إلى طلبه.

ونحن نرى أن المندوب الباباوى الكاردينال جوفريدو استطاع أن يحمل سلطات ميلانو على تنفيذ القوانين الخاصة بتدمير بيوت المهرطقين، وأن تقوم السلطة الزمنية أو المدنية [أى الذراع العلمانى للسلطة الروحية، أى الكنيسة] بقتل كل من تدينه الكنيسة الكاثوليكية فى غضون عشرة أيام من إدانته، ورغم هذا فإن هذا القانون لم يطبق على أحد، الأمر الذى يدل على نجاح سياسة البابا جريجورى التاسع فى حث الرهبان الدومنيكان على استئصال الهرطقة كجزء من عملهم الروتينى فى مدينة فلورنسا، وهكذا ظهرت جماعة الرهبان الدومنيكان المتحمسين لدينهم إلى حد التعصب والهوس، والذين كانوا على استعداد للتضحية بحياتهم فى سبيل محق الهراطقة أمثال سان پيرو مارتيز ـ چيوفانى دا فيسنزا ـ ورولاند دى اكريمونا داينبريو.

وقد تم استكمال نظام العمل فى محاكم التفتيش فى كل من إيطاليا وفرنسا بالتدريج حتى اكتمل بناؤها لبنة لبنة، فى حين أن بداياتها فى كل من فلورنسا بإيطاليا وتولوز بفرنسا كانت أبعد ما تكون عن الترتيب والنظام.

وفى البداية كانت مقاومة الكنيسة الرومانية للهرطقة مسألة عسيرة للغاية، ويذكر المؤرخ هنرى تشارلس اسم الراهب أليرجيو كأول محقق فى محكمة تفتيش لومباردى فى عام ١٢٣٢. ونظرًا لاضطلاع المندوب الباباوى الكاردينال چوفريدو بمهمة تهدئة الصراع المدنى المحتدم فى برجامو، فقد عين لهذا مسؤولًا يدعى پييرتوريانى، وفى الوقت نفسه اغتنم المندوب الباباوى هذه الفرصة السانحة لشن حملة على المهرطقين والزج ببعضهم فى السجن، ولم يكد هذا الكاردينال يدير ظهره حتى رفض الأهالى استقبال المسؤول الذى عينه، وأقاموا بدلًا منه شخصًا اسمه ر. دى مارللو، والأدهى من هذا أنهم أطلقوا سراح المهرطقين المسجونين، وبناء عليه أصدر البابا جريجورى التاسع فى ٣ نوفمبر ١٢٣٢ تعليمات إلى ألبيريكو بوصفه محققًا فى محكمة التفتيش للتصالح مع الأهالى المتمردين بشرط أن يعيدوا إلى پييرتوريانى جميع النفقات التى تكبدها ويضمنوا القضاء على الهرطقة، الأمر الذى يدل على مدى ضعف الكنيسة فى مقاومة الهرطقة آنذاك.

وتكررت الحكاية نفسها مع الراهب رولاندو دى كريمونا الذى كان يعمل أستاذًا بجامعة تولوز، الذى غادر لانجويدوك (بفرنسا) فى عام ١٢٣٣ واتجه إلى بياسنزا لقمع الهرطقة المنتشرة فيها. ودعا رولاندو أهل بياسنزا للاجتماع ووعظهم فى أصول المسيحية الحقة وأمر المسؤول الدينى بطرد الهراطقة. ولكن النتيجة خيبت أمله، فقد تواطأ هذا المسئول مع الهراطقة وأصدقائهم الذين هاجموا رجال الإكليروس بمن فيهم الأسقف والرهبان، فضلًا على أنهم قاموا بذبح الراهب سان سباينو وجرحوا رولاندو ونفرًا من رفاقه، وحمل الرهبان الدومنيكان جسد زميلهم رولاندو وهو بين الحياة والموت من المدينة التى كان الأسقف قد فرض الحظر عليها، وعز على الكنيسة أن يتمرد عليها الهراطقة على هذا النحو، فطلبت من رولاندو أن يعود إلى المدينة التى اعتدت عليه، ولكنه آثر السلامة فبقى بعيدًا وأصدر أمره بحبس المسؤول الكنسى وأربعة وعشرين آخرين، واستطلع رأى البابا فى شأنهم، فقام البابا جريجورى بإرسال رئيس الشمامسة إلى نوفارا وأمره بالسيطرة على المدينة وأخذ تعهدًا عليها بقمع الهرطقة، ولكن هذا الإجراء لم يرق للمواطنين فثاروا مرة أخرى وأطلقوا سراح السجناء. ورغم كل ما قابله رولاندو من مقاومة وعنت، فإن ذلك لم يفت فى عضده، فذهب إلى ميلانو لاقتلاع جذور الهرطقة فيها، ولكن النبيل لانتلمو الذى وفر الحماية للمهرطقين فى قلعته بالقرب من لودى أساء معاملته، ومن ثم أصدر رولاندو حكمًا بإدانته وأمر باقتياده فى الشوارع وقد تعرى الجانب الأعلى من جسده. وحرص رولاندو على أن يكون حاضرًا بنفسه هذا التحقير، وأن يقوم بفرض التوبة عليه بعد أخذ رأى البابا، وبعد مضى شهر واحد تم إلقاء القبض على اثنين من تجار فلورنسا هما فيربابنته وجاسبو والاستيلاء على ممتلكاتهما. ولكن

نظرًا لأهميتهما ونفوذهما الواسع، أصدر البابا جريجورى أمرًا بإطلاق سراحهما نظير دفع كفالة مالية ضخمة تبلغ ألفى مارك من الفضة.

يتضح لنا مما تقدم أن الهرطقة اشتد ساعدها بسبب الانقسامات والصراعات السياسية المحتدمة فى المدن الإيطالية، الأمر الذى يثبت أن هناك علاقة وثيقة بين الهرطقة والسياسة، وبينما كانت محاكم التفتيش فى طريقها إلى الرسوخ والاستقرار، برز راهب دومنيكانى نذر نفسه لاضطهاد المهرطقين يدعى چيوفانى سكيو دا فيسنزا. وسعى هذا الراهب إلى تهدئة هذه الصراعات حتى يتمكن من الانتصار على الهرطقة. وبسبب النجاح المدهش الذى أصابه هذا الراهب فى بولونيا، طلب إليه البابا جريجورى أن يضطلع بمهمة مماثلة فى فلورنسا حيث استعرت الحروب الأهلية التى شجعت على ازدهار الهرطقة. ورغم وجود بذرة لإنشاء محكمة تفتيش هناك فإن الهرطقة أعلنت بملء فيها عن نفسها وعارضت الإكليروس وهزأت بهم، وشاع عن هذا الراهب أمر التقى والصلاح وصنع المعجزات، وأحبه شعب بولونيا لدرجة أنه احتج على البابا بمغادرته بولونيا والتوجه إلى فلورنسا للتصدى للهرطقة هناك.

فى ذلك الوقت استبدت المخاوف بالبابا من عودة الإمبراطور فردريك من ألمانيا ومعه جيش للاستيلاء على لومباردى بناء على تشجيع من طبقة النبلاء الإيطاليين المعادية للبابا، فلهذا سعى البابا ما وسعه السعى للحيلولة دون ذلك. ولم يجد أفضل من چيوفانى للتصدى لفردريك؛ فهو خطيب مفوه يهز مشاعر سامعيه، وتنقل هذا الخطيب بين عدد من المدن الإيطالية يحفزها لمقاومة جيش فردريك، وبعد قيام چيوفانى بزيارة مانتوا، ذهب إلى مدينة ڤيرونا التى كانت جيوش مانتوا وبولونيا وبريسكيا وفابيتران تحاصرها، واستطاع إقناع هذه الجيوش بفك الحصار عن المدينة والانسحاب منها، فشعر أهل ڤيرونا نحوه بالامتنان، فاستغل هذه الفرصة لحرق ستين مهرطقًا ومهرطقة من أرقى عائلات المدينة فى أرض السوق. ثم قام باستدعاء حشد غفير من علية القوم فى أحد السهول القريبة، فاستجاب لدعوته صفوة القوم ومندوبون عن المدن الأخرى، ويقدر عدد الحاضرين بما بين أربعين ألفًا وخمسمائة ألف شخص، واستطاع الرجل ببلاغته أن يهز مشاعرهم وأن يقنعهم بنبذ الشحناء. ثم أدان چيوفانى جميع التابعين للإمبراطور فردريك ومن دعوه إلى غزو الأراضى الإيطالية واعتبرهم متمردين وأعداء للكنيسة، وانتزع من الحاضرين قسمًا بنبذ المنازعات والمشاحنات فيما بينهم كما طلب منهم التوقيع على معاهدة صلح.

ووصل إلى مسامع البابا جريجورى التاسع أن چيوفانى كان يفكر فى أن يصبح البابا. وفكر جريجورى فى التخلص منه ولكن شعبيته وسمعته الطيبة حالت دون ذلك، وأيضًا زار چيوفانى

مسقط رأسه فيسنزا بدعوة من أسقفها، وهناك استطاع أن يترك فى أهلها أثرًا عميقًا، فاستغل ثقة أهل فيسنزا فيه ليحرق عددًا من الهراطقة، وهو ما قام بفعله فى مدينة ڤيرونا، وفى أثناء غيابه فى مدينة ڤيرونا، حرض أوجوشيونى بلبو نفرًا على التمرد ضده، فأسرع وعاد إليها لإخماد هذا التمرد من جانب بعض المهرطقين وأمر بالإجهاز عليهم، وأحضر أوجوشيونى تعزيزات عسكرية ونشبت معركة ضارية فى الشوارع انتهت بالقبض على چيوفانى والزج به فى السجن نحو سبتمبر ١٢٣٢. وتثبت هذه الحادثة أن الكرسى الباباوى كان عاجزًا عن توفير الحماية لأحد أنصاره المقربين، ولكن چيوفانى استطاع العودة إلى ڤيرونا ثم إلى بولونيا بعد أن دفع فدية كبيرة للذين أسروه كى يقوموا بإطلاق سراحه، غير أن الفوضى وأعمال الشغب عادت من جديد إلى المدن الإيطالية، فأمر البابا جريجورى بعودة چيوفانى لتهدئة الموقف، ونجح چيوفانى فى ذلك ولكنه لم يكد يغادر المكان حتى تفجرت الحرب الأهلية وأعمال الشغب، وحاول البابا جريجورى تهدئة الموقف للمرة الثالثة. ولكنه كلف هذه المرة أسقفى ريجيو وتريفيزو بإنجاز المهمة، وتمكن الرجلان من إيقاف القتال لفترة قصيرة، وكان الهدف من وراء رأب الصدع بين الفرقاء الإيطاليين المتطاحنين هو السعى إلى توحيدهم حتى يتمكنوا من صد غزو الإمبراطور فردريك للأراضى الإيطالية. ولكن جهود البابا باءت بالفشل، واستطاع فردريك إحراز النصر فى كورتوفا فى نوفمبر عام ١٢٣٧، وبذلك كتبت له السيادة على لومباردى.

ولكن هذا لم يفت فى عضد البابا جريجورى، فقد مضى فى قمع الهرطقة فى لومباردى وأصدر تعليماته إلى كل المندوبين الباباويين فى لومباردى للتصدى إلى الهرطقة هناك. وفى مايو عام ١٢٣٦ حاول إنشاء محكمة تفتيش مبدئية هناك، غير أن الاضطرابات السائدة حالت دون أن يكون لهذه المحكمة أى نشاط فعال، وادعى الإمبراطور فردريك أن أحد أهم أهدافه فى غزو لومباردى هو استئصال الهرطقة المستشرية فيها، وعندما أنحى البابا جريجورى التاسع على فردريك باللائمة لمنعه الرهبان من الوعظ والتبشير، واحتج أن هذا من شأنه أن يعطى الهرطقة فرصة للذيوع والانتشار، رد عليه الإمبراطور ملمحًا إلى أن چيوفانى يتظاهر بمحاربة الهرطقة فى حين أن هدفه الحقيقى كان السيطرة على العباد والاستيلاء على قلاع المشتبه فى هرطقتهم، عندئذ نأى البابا بنفسه عن تصرفات مندوبه چيوفانى كما أنه تساهل مع المهرطقين لدرجة أن شانئيه اتهموه بالتغاضى عن الهرطقة نظير سبائك الذهب التى أخذها من المهرطقين.

وعاش چيوفانى حياة هادئة لبعض الأعوام فى بولونيا، ولكنه فى عام ١٢٤٧ بعد أن بدأت محاكم التفتيش فى الرسوخ والاستقرار، عاد إلى مزاولة سابق نشاطه فى محاربة الهرطقة بعد أن عينه

إينوسنت الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) محققًا دائمًا فى منطقة لومباردى وخوله سلطات كاملة وأعفاه من المسؤولية أمام طائفة الرهبان الدومنيكان. ولكن الفوضى الضاربة بأطنابها فى شمال إيطاليا منعت چيوفانى من لعب أى دور، مما يدل على أن محاكم التفتيش الناشئة حديثًا كانت مجرد حبر على ورق، ويبدو أنه تخلى تمامًا عن محاربة الهرطقة، فقد توقف نشاطه فى هذا الشأن حتى بعد وفاة الإمبراطور فردريك عام ١٢٥٠. ولكنه استطاع أن يعود إلى نشاطه فيما بعد.

ويعتبر پييرو دا ڤيرونا المعروف باسم القديس بطرس الشهيد أبرز من تصدى بلا خوف أو وجل للهرطقة متحديًا جميع المتاعب والمصاعب، وحتى قبل أن يخول البابا طائفة الرهبان الدومنيكان سلطة اضطهاد المهرطقين، كان پييرو قد نذر نفسه لمحاربة الهرطقة والتبشير بالدين المسيحى، فأصاب نجاحًا باهرًا فى هذا الشأن، ويقال إنه صنع معجزات فى العديد من المدن مثل راڤينا ومانتوا والبندقية وميلان، وبسبب نجاحه فى التصدى للهرطقة، اغتاظ المهرطقون منه لدرجة أنهم ذات مرة قاطعوه أثناء تبشيره فى ميدان عام وقذفوه بوابل من الحجارة والقاذورات.

الدومنيكان وقمع الهراطقة

وعندما أنيط بالرهبان الدومنيكان مهمة اضطهاد المهرطقين، لعب حماسه دورًا حاسمًا فى وقوع الاختيار عليه للاضطلاع بهذه المهمة، وفى عام ١٢٣٣ تم إرساله إلى مدينة ميلانو بسبب فشل جميع مندوبى البابا فى محاربة الهرطقة هناك. فقد كانت القوانين المناهضة للهرطقة التى استنها الكاردينال جوفريدو عام ١٢٢٨ مجرد حبر على ورق، ولكن الحياة دبت فى هذه القوانين الميتة بمجرد وصول پييرو دا ڤيرونا إلى هناك، وهكذا تم إحراق عدد من الهراطقة الذين أصبحوا من أوائل ضحايا التعصب المسيحى فى ميلانو منذ نشأة الهرطقة الكاثارية فى مونتفورت، وفى ميلانو قام پييرو بإنشاء جمعية لقمع الهرطقة حظيت بحماية البابا ـ وحذت فلورنسا حذو هذه الجمعية ومارست بعد انقضاء عشرة أعوام اضطهادًا دمويًّا ـ وانقطعت أخباره حتى عام ١٢٤٢ حيث نجده مرة أخرى فى ميلانو يزاول قمعه المروع.

وبعد مرور عامين نشاهده يحارب الهرطقة فى فلورنسا، تلك المدينة التى تعرضت لممارسات محاكم التفتيش القمعية، فقد عهد فى عام ١٢٢٨ إلى الراهب چيوفانى دى ساليرنو كاهن سانتا ماريا نوفيلا بمحاكمتهم، وبعد موته عام ١٢٣٠ خلفه الراهب الأوبراندينى كفالكانتى، كما خلفه نحو عام ١٢٤١ الراهب راجييرى كالكاجين، ولكن نشاط التصدى للهرطقة كان محدودًا للغاية. وخاصة لأن بعض الأحزاب وأنصار الإمبراطور فردريك الثانى كانوا يوفرون الحماية

للمهرطقين، الأمر الذى ساعد على ذيوع المهرطقين رغم حرق بعضهم من وقت لآخر. والجدير بالذكر أن كثيرًا من العائلات ذات النفوذ مثل عائلات البارونى والبولسى وكيبريانى وكافالكانتى وساراسينى ومالبرسا كانت تعمل على حماية المهرطقين، وقد شيدت عائلة البارونى معقلًا للهرطقة فى سان جاجبو، كما أن المهرطقين وجدوا ملاذات آمنة فى كثير من المنازل التى تملكها العائلات الكبيرة، وكانت عائلة الكيبريانى تحتفظ بقصرين أحدهما فى موجنون والآخر فى فلورنسا، حيث تجمعت القوات الكاثارية بقيادة المهرطق مارشيزيانو، فضلًا على أن الهراطقة كانت لهم مدارس كبيرة فى كل من بوجيسبوتسى وبيان دى كاسكيا وبونت أ. سييف.

والواقع أن الهرطقة انتشرت فى وسط إيطاليا انتشارًا عظيمًا، فكادت تشبه لومباردى، ولم تبذل الكنيسة جهودًا حثيثة لاستئصال الهرطقة هناك حتى عام ١٢٣٥، ويستدل المهرطقون على ذلك بأن البابا فى هذا العام عهد إلى الرهبان الدومنيكان فى كل أسقفيات توسكانى وفيتربو وأورتا وبالنبوريجيو وكاسترو وسنسو أميرينو ونارانى إبراء المهرطقين من تهمة الهرطقة ماداموا لا يجهرون بهرطقتهم، وعبروا من تلقاء أنفسهم عن ندمهم وأن الأساقفة يوافقون على ذلك الاعتراف بذنبهم فتطبق عليهم القوانين الباباوية، وفى فيتربو لم تبذل الكنيسة أية جهود جادة لاقتلاع الهرطقة إلا بعد زيارة البابا جريجورى لها فى عام ١٢٣٧؛ حيث تولى بنفسه تطهير المدينة من الهرطقة وحيث أدان المهرطق چيوفانى دا بيفتو وكثيرًا من المهرطقين، وأيضًا حث البابا أسقف پادوا على بذل الجهد من أجل تطهيرها من الهرطقة، وفى مدينة بارما نشأت جماعة فرسان السيد المسيح من أجل تحقيق هذا الهدف، ويشير هذا إلى بدء العمل المنظم تحت الضغوط المتزايدة لقمع الهرطقة، ويرجع الفضل إلى إدارة روجييرى كالجانى النشيطة فى استكمال محكمة تفتيش فلورنسا وكثرة أحكام الإعدام التى تصدرها، ويشير المهرطقون فى اعترافاتهم إلى كثرة حرق المهرطقين فى كل مكان مما ينم عن انتشار الهرطقة على نطاق واسع بسبب الظروف والاضطرابات السياسية المواتية.

فلورنسا المهرطقة

وفى فلورنسا استطاع الراهب روجييرى بهمته ونشاطه فى ملاحقة المهرطقين أن يدفعهم إلى اليأس والقنوط، وأدت كل محاكمة لهم إلى الكشف عن مجموعات أخرى من المهرطقين، فاتسعت دائرة المحاكمات لدرجة أنها شملت ما لا يقل عن ثلث سكان هذه المدينة وعددًا كبيرًا من النبلاء وعلية القوم، ولهذا صمم روجييرى على إنزال أشد العقاب بزعمائهم، وحكم بحرق الخطرين منهم، فأصبحوا محاصرين بين المطرقة والسندان وكان عليهم أن يختاروا بين المقاومة الصريحة

والتدمير القاتل، وجمعت عائلة البارونى الأرستقراطية المهرطقة أتباعها وهاجموا السجون وأطلقوا سراح السجناء وقاموا بتوزيعهم فى منطقة فلورنسا حيث استمروا فى التبشير بمذاهبهم المارقة.

وبات من الواضح تأزم الوضع نظرًا لارتفاع عدد المهرطقين، وأن محاكم التفتيش لم تدقق فى توزيع الاتهامات الجزافية دون تمحيص بين المذنبين والأبرياء. أما الكنيسة فقد لاح لها فى الأفق قرب انتصارها على المارقين عليها، ومن جانبه كتب البابا إينوسنت الرابع إلى عاهلة فلورنسا يطلب منها دعم محاكم التفتيش، كما أنه استدعى پييرو داڤيرونا من لومباردى كى يسهم فى محاربة الهرطقة، ونحو عام ١٢٤٤ أسرع إلى الانخراط فى هذا الصراع واستخدم بلاغته التى لا يشق لها غبار فى جمع عدد غفير من الحضور، اكتظ بهم ميدان دى سانتا ماريا نوفيلا لدرجة أرغمت المسؤولين على توسيعه. وكذلك اشتعل الحماس الدينى لدى النبلاء الراسخين فى العقيدة المسيحية وشكل منهم حرسًا لحماية الرهبان الدومنيكان، كما أنشأ جهازًا عسكريًّا أطلق عليه جمعية القديسة مريم يرتدى أفراده زيًّا خاصًّا يميزهم، وأقسم هذا الحرس على الدفاع عن محاكم التفتيش بكل ما أوتوا من قوة ومهما كانت الأخطار، نظير مزايا يمنحها الكرسى البابا‌وى لهم. وشعر الراهب روجييرى بقوته وقدرته على التصدى للهرطقة فحرق عددًا كبيرًا من الضحايا، ولم يستسلم المهرطقون بل إنهم قاوموا تحت زعامة عائلة بارودى، وكان من السهل عليهم أن يقنعوا المسؤول فى برجامو بزعامة سرباس دى بيسانولا المعين من قبل الإمبراطور فردريك الثانى بالمبادرة بتقديم الحماية لهم، وهكذا انتقل الصراع الدائم والدامى بين الكنيسة والإمبراطور إلى شوارع فلورنسا، واتخذ هذا الصراع الدامى شكل الحرب بين الإيمان والكفر.

واستدعى روجييرى عائلة البارونى للمثول أمامه ولكنهم رفضوا، فلجأ إلى البابا إينوسنت الرابع وحصل منه على تفويض خاص بالتعامل مع هذا الوضع، فاضطروا إلى الرضوخ لرغبة البابا فى ١ أغسطس ١٢٤٥ تقريبًا، واستشعروا أن روجييرى كان فى سبيله إلى إصدار الأحكام عليهم، فشكوا لسرباس الذى أرسل موظفيه فى ١٢ أغسطس ١٢٤٥ إلى روجييرى وطلبوا منه إلغاء الإجراءات التى اتخذها ضد عائلة البارونى وإرجاع الكفالة التى تقاضاها حتى لا يتعرض للمساءلة والغرامة، فقام روجييرى باستدعاء سرباس للمثول أمام محكمة التفتيش للشك فى هرطقته، وألقى الراهب پييرو بهذه المناسبة كلمات نارية بمثابة صب الزيت على النار، ووجدت مدينة فلورنسا نفسها نهبًا مقسمًا إلى فريقين كل منهما يريد الفتك بالآخر. وفى أحد أيام الأعياد هاجم المهرطقون الكاثوليك فى عقر كنائسهم وذبحوا الكثيرين منهم، ولهذا قام روجييرى وأسقف أردنجو فى ٢٤ أغسطس بتلاوة حكمه على عائلة البارونى فى ميدان سانت ماريا نوفيلا

وصادر أملاكهم وأمر بهدم قلاعهم وقصورهم، الأمر الذى تسبب فى نشوب صراع دموى بين الفريقين المتصارعين، واضطلع پييرو بقيادة قوة ضاربة وخاض معركتين دمويتين تم فيهما دحر المهرطقين.

وهكذا تحطمت قوة المهرطقين وأنصارهم، وكوفئ روجييرى على عظيم شجاعته فعين قبل نهاية ١٢٤٥ أسقفًا فى كاسترو. وحل محله سان پييرو كمفتش فى محاكم التفتيش، فلم يهدأ له بال حتى طارد المهرطقين ولاحقهم على نحو أقض مضاجعهم، فاهتدى منهم من اهتدى ولاذ بعضهم بالفرار، وعندما ترك پييرو فلورنسا حق له أن يزهو بانتصاره على الهرطقة وترسيخ محاكم التفتيش على أساس متين، ومع ذلك فقد تبقت فلول المهرطقين.

وبينما انصرف روجييرى فى صيف عام ١٢٤٥ إلى الانخراط فى الصراع المحتدم فى فلورنسا، قام إينوسنت الرابع فى مجمع ليون بإصدار الحكم بعزل الإمبراطور فردريك الثانى ساعيًا إلى استبداله بحاكم آخر يقبل أن يكون خاضعًا للكنيسة الكاثوليكية، ولكن فردريك استهزأ بأمر عزله واستطاع بكل يسر التخلص من منافسيه على العرش، غير أنه وجد عسرًا فى الاحتفاظ بممتلكاته الإيطالية. وكان موته فى ١٣ ديسمبر ١٢٥٠ سببًا فى ارتياح الكنيسة من متاعبه، والذى لا ريب فيه أن حذق الإمبراطور لفنون الحرب والقتال ونشاطه الفياض واتقاد ذهنه وشجاعته كانت العقبة الكأداء التى منعت الكرسى الباباوى من إحكام السيطرة على إيطاليا، وحالت دون إنشاء نظام ثيوقراطى فيها، وبعد وفاة فردريك خلفه ابنه الشاب كونراد الرابع، وهو فى الواحدة والعشرين من عمره، الذى لم يكن مرهوب الجانب، وغمرت الفرحة قلب البابا بعد أن انزاح عنه كابوس الإمبراطور فردريك الجاثم على صدره، والذى كان السبب فى تشجيع المهرطقين وكسر شوكة محاكم التفتيش فى جميع أرجاء إيطاليا، وبعد أن تنفس بابا روما الصعداء، أصدر أوامره إلى محاكم التفتيش بالعمل بكامل نشاطها وكل قوتها، فأرسل المحققين فى كل أرجاء لومبارديا المهرطقة، وطلب من پييرو وفيفيانو التوجه إلى كريمونا بعد أن منحهما السلطات اللازمة، وهدد البابا بعقاب أى حاكم يمتنع عن تقديم المساعدة اللازمة لهما فى حربهما على الهرطقة، وبعد إصدار هذا المرسوم الباباوى تلته سلسلة فى المراسيم الموجهة إلى تنظيم الرهبان الدومنيكان فى الأقاليم لحثهم على التعاون الكامل مع محاكم التفتيش، وبعد سلسلة من المراسم الباباوية المتعجلة صدر مرسوم باباوى فى ١٥ مايو ١٢٥٢، أمر السلطة المدنية بالخضوع الكامل لمحاكم التفتيش وينص على أن استئصال الهرطقة هو واجب الدولة الرئيسى.

الراهب **پييرو**

اشتهر پييرو المندوب الباباوى باتباع أسلوب قهر البدن لدرجة أن زملاءه الرهبان طلبوا من صديقه ماثيو دا كوريجيو أن ينصحه بعدم المغالاة أو الإفراط فى تشدده مع نفسه حتى لا يذبل جسده ويذوى. وأشيع عنه أنه كان لا يتناول طعام الإفطار قبل غروب الشمس، وأنه كان يمضى ليلته فى الصلاة ولا ينام إلا النزر اليسير. وأغلب الظن أن هذه الحياة غير الطبيعية جعلته يتصرف بطريقة عصبية وغير مسؤولة، وليست هناك أية وثائق تلقى الضوء على تفاصيل إنجازاته كمحقق، ولكنه من المؤكد أنه انقض بكل قوته على الهراطقة وصب جام غضبه عليهم. وبعد مضى تسعة أشهر من مباشرة عمله كمحقق، بث الرعب فى قلوب المهرطقين لدرجة أن يأسهم دفعهم إلى التآمر لاغتياله، وعهدوا إلى نبيل اسمه ستيفانو كونفالو نيرو بتنفيذ خطة الاغتيال واستئجار القتلة نظير خمس وعشرين ليرة دفعها جويدوتو ساتشلا، وقبل عيد القيامة بأسبوع فى عام ١٢٥٢ اقترح ستيفانو على مانفريدو كليتورو أن يتولى عملية الاغتيال فوافق على ذلك، وأشرك معه كارينو دى بالسامو فى ارتكاب الجريمة، وفى نفس الوقت اضطلع جياكومو ديلا تشيوسا بالسفر إلى بافيا؛ كى يذبح رانييريو ساكوف، ولكنه فشل فى أداء مهمته فى حين نجح المتآمرون الآخرون فى مهمتهم. وكان الراهب پييرو آنذاك المسؤول الدينى عن كومو. وسافر پييرو إلى بافيا للاحتفال بعيد القيامة هناك، ولكنه اضطر إلى العودة إلى ميلانو لينظر فى أمر أحد المهرطقين، وفى أسبوع عيد القيامة، ذهب المتآمر ستيفانو لصحبة المتآمرين مانفريدو وكارينو إلى كومو حيث انتظروا رحيل پييرو.

وليس أدل على شجاعة پييرو وإقدامه من بدء رحلته رغم إصابته بالحمى سيرًا على الأقدام دون أن يرافقه سوى راهب دومنيكانى واحد، وتبعه المتآمران مانفريدو وكارينو حتى وصل إلى بارلاسينا ثم انقضا عليهما فى مكان موحش منعزل، وقام كارينو بالقضاء على پييرو بضربة واحدة، كما أصاب زميله إصابة قاتلة، وعندما أدرك أن پييرو لا يزال يتنفس طعنه فى صدره بخنجر طعنة نجلاء، ورآه بعض المسافرين فحملوا جثته إلى دير القديس سيمبلبسياتو، ومن الغرابة بمكان أن يتأخر الحكم الصادر ضد ستيفانو لمدة ثلاثة وأربعين عامًا.

كارينو المهرطق السفاح القديس

أما المتآمر الآخر كارينو فمن المذهل أن يتحول هذا السفاح إلى قديس، طوبته الكنيسة الكاثوليكية باسم القديس أيكريتوس، وأيضًا تاب أحد المشتركين فى المؤامرة اسمه دانييل دا جيوسانو، والتحق بطائفة الرهبان الدومنيكان، ويبدو أن جياكومو ديلاتشيوسا تمكن من الهرب،

غير أنه أمكن القبض على مانفريدو واعترف بجرمه كما اعترف باشتراكه فى مقتل اثنين من المحققين الآخرين، هما الراهب پيير دى براسيايانو والراهب كاتالانو، وهما من طائفة الفرنسيسكان فى لومبارديا، وأمرت محاكم التفتيش مانفريدو بالمثول أمام البابا حتى يقرر مصيره ولكنه استطاع الفرار دون أن يعرف أحد عن مصيره شيئًا، ويبدو أيضًا أن المتآمرين جميعًا نجوا من الموت حيث إن طائفة الوالديسيانيين المهرطقة وفرت لهم الحماية فى وديان الألب.

واستغلت الكنيسة حادثة اغتيال المحقق پييرو فى تدعيم أركانها والتبشير بالمعجزات التى أنجزها هذا الشهيد، وكما أسلفنا طوبته الكنيسة قديسًا على جناح السرعة فى ٢٥ مارس ١٢٥٣، ومن المعجزات المنسوبة إليه نجاحه الساحق فى استئصال الهرطقة فى مدينة ميلانو، وجاء فى مرسوم تطويبه قديسًا أن شهادته ومعجزاته كانت السبب فى هداية الكثير من المهرطقين إلى الدين المسيحى، وقام البابا نيكولاس الرابع (١٢٨٨ ـ ١٢٩٢) باستدعاء توباسو لضلوعه فى الجريمة وأرغم على الاعتراف بإثمه، وأخذت محكمة التفتيش عليه تعهدًا بعدم انتهاك قدسية الدين مرة أخرى، وتوالى الباباوات على الكرسى الباباوى من روما فشجعوا على انتشار أسطورة القديس الشهيد پييرو ومعجزاته، وتحول قبره إلى مزار يؤمه الحجيج، وعندما فتح قبره عام ١٧٣٦ وجد رفاته سليمًا ومكان الطعن ظاهرًا، وهكذا لعبت شهادة الراهب پييرو دورًا فى ترسيخ محاكم التفتيش وتثبيت أركانها.

ثم حل جويدو دا سستو، ورانيريو ساكونى دا فيسنزا محل القديس پييرو، وكان رانيريو فى الأصل مهرطقًا من أتباع الكنيسة الكاثارية. ولكنه أدرك خطأه وتخلى عن هرطقته والتحق بطائفة الرهبان الدومنيكان، ومن حسن حظه، أن البابا إينوسنت الرابع فى عام ١٢٤٦ خول المسؤول الدينى فى مدينة ميلانو سلطة السماح للمهرطقين التائبين بالالتحاق بطائفة الدومنيكان دون وضعه كمستجد تحت الاختبار لمدة سنة كما جرت العادة مع الكاثوليك، وبالنظر إلى أن رانيريو ساكونى دا فسنزا كان مهرطقًا سابقًا، فقد كان على علم تام بأسرار المهرطقين، وساعدته هذه المعرفة فى أن يسوم زملاءه المهرطقين القدامى العذاب، وبسرعة تم تعيينه كمحقق اشتهر بقدرته الفائقة على محق الهرطقة، وتدل محاولة الهراطقة للتخلص منه على مدى كراهيتهم له. ولا يعلم المؤرخون أية تفاصيل عن محاولة اغتياله الفاشلة سوى أن المتآمر جياكومو ديلا تشيوسا عاد من بافيا دون أن ينجح فى قتله، وفى الحال تم نقل دينريو إلى مدينة ميلانو باعتباره خير خلف للشهيد پييرو.. واستطاع داينرمو بحزمه وقوة شكيمته أن يقمع الهرطقة فى لومبارديا ويخضع شعبها لسلطات محاكم التفتيش.

والواقع أن لومباردى ظلت تعتبر ملاذًا آمنًا للمهرطقين حتى وفاة الإمبراطور فردريك الثانى، كما أن المهرطقين هناك أقاموا مستعمرات خاصة بهم على الرغم من اشتداد ساعد محاكم التفتيش، الأمر الذى اقتضى من راينيريو أن يبذل قصارى جهده لاقتلاع الهرطقة منها، وحتى ندرك قدرة الهرطقة على الصمود نذكر أن الحاكم أيزلين دى رومانو لم يخف حمايته للهرطقة فى منطقة تريفيزو التى استمرت فى اتباع سياسة حماية المهرطقين حتى بعد وفاة الإمبراطور فردريك، فعندما كان خليفته كونراد الرابع فى عام ١٢٥٣ يمر بأرض تريفيزو بهدف استعادة مملكة سيسليان، عين داعيًا دينيًّا عامًّا فى لومباردى اسمه روبرتو بالافسيننو لا يقل فى خطره على الكنيسة الكاثوليكية عن أزيلين نفسه، ورغم أن كونراد توفى عام ١٢٥٤ وأن البابا إينوسنت الرابع استولى على ناپولى وضمها إلى أملاك الكنيسة، فقد ظلت قوة بالافيسينو تتزايد، وسرعان ما أقام بالافيسينو علاقات مع مانفريد (الابن غير الشرعى لفردريك الثانى) الذى تمكن من انتزاع ناپولى من يد البابا.

وكان أول مشروع اضطلع به راينيريو فى عام ١٢٥٣ هو استدعاء الكونت أيجيديو للمثول أمام المحكمة بتهمة الدفاع عن الهرطقة، فضلًا على أنه سوى بالأرض قلعة كورتينوفا بالقرب من بيرجامو التى استخدمها المهرطقون ملاذًا لهم، كما أنه حظر إعادة بنائها.. ورد الكونت أيجيديو على هذه الضربة بالاستيلاء على قلعة مونجانو التى زعم أسقف كريمونا أنها ملك له وحولها إلى حصن للمهرطقين الذين وفر الكونت لهم الحماية والأمان، ولهذا قامت الكنيسة الكاثوليكية بإقصائه عنها وطرده منها، ولكن هذا الكونت لم يكترث بهذا الحرمان الكنسى، وفى ٢٣ مارس عام ١٢٥٤، أمر البابا إينوسنت الرابع سلطات ميلانو بالاستيلاء على القلعة وتقديم المقيمين فيها إلى المحاكمة، والجدير بالذكر أن الكونت كان حليفًا قويًّا لبالافيسينو عدو الله والكنيسة، وأيضًا ظلت مونجانو مكانًا آمنًا للمهرطقين المضطهدين حتى عام ١٢٦٩، عندما تحرك أهل ميلانو لحصارها ثم الاستيلاء عليها وتسليمها إلى طائفة الرهبان الدومنيكان.

وأصاب راينيرو نجاحًا عظيمًا فى قمع المهرطق روبرتو باتا دا جيوساتو نبيل ميلانو الذى ظل على مدار عشرين عامًا واحدًا من أبرز المدافعين عن الهرطقة فى إقليم لومباردى، واستقبل هذا النبيل الأساقفة المهرطقين جهارًا فى قلعته فى جاتا، وسمح لهم بإقامة المنازل والمدارس لنشر هرطقاتهم فى جميع أرجاء البلاد، وكانت لهم جبانة دفن فيها أسقفان مهرطقان هما نازاريو وديزيدبريو، واشتهرت القلعة والأراضى المحيطة بها بسوء السمعة وتفشى الهرطقة فى ربوعها لدرجة أن سان بيرو مارتيز تنبأ أثناء اجتيازها بخرابها ونبش قبورها لاستخراج جثث المهرطقين منها، ورغم ما عرف عن روبرتو من مروق، فقد ظل طليقًا لا يردعه رادع ويلوذ بقلعته فى جاتا المهرطقون علنًا،

وإذا كانت محاكم التفتيش لم تتخذ ضده أية إجراءات رادعة، فقد تغير الموقف فى عام ١٢٥٤ حيث قام رانيريو وجويدو باستدعائه للمرة الثانية، وعندما امتنع عن المثول أمامهما أعلنا هرطقته وحكما بمصادرة أملاكه وخضوع نسله للعقوبات المعتادة، وأدرك روبرتو جدية المحققين معه هذه المرة فأسرع بالتصالح مع محكمة التفتيش والرضوخ إلى البابا إينوسنت الذى أصدر فى ١٩ أغسطس ١٢٥٤ أمر بتدمير جميع منازل المهرطقين وإشعال النار ونبش الجبانة لاستخراج عظام الهراطقة منها وحرقها، وأن يقوم راينيريو باستتابة الكونت المارق حسبما يتراءى له.

البابا إينوسنت الرابع ١٢٤٣ ــ ١٢٥٤

وذروة السلطة الباباوية

وهكذا بلغت السلطة الباباوية ذروة قوتها، وتوفى الإمبراطور كونراد الرابع فى ٢٥ مايو ١٢٥٤ على ما يبدو مسمومًا، وتمكن البابا إينوسنت الرابع من استرجاع مملكتى صقلية، ويبدو أن البابا أمسك بزمام جميع الأمور فى يده وأنه صار دون منازع رئيس السلطتين الزمنية والروحية معًا فى إيطاليا، وهكذا توفرت الفرصة الذهبية لجعل محاكم التفتيش الإيطالية تتمتع بسلطان مطلق، وفى ٨ مارس من العام المشار إليه كان البابا قد اتخذ خطوة مهمة نحو تنظيم محاكم التفتيش، فقد أمر أحد رهبان روما الفرنسيسكان أن يعين عددًا من مرؤوسيه من طائفة الفرنسيسكان كمحققين فى كل محافظات جنوب لومباردى، وفى ٢٠ مايو من العام نفسه أعاد البابا إصدار مرسومه الخاص باستئصال الهرطقة، ثم أرسل أوامره إلى جميع حكام إيطاليا أن يضمنوا تشريعاتهم المحلية جميع القوانين التى استنها الإمبراطور فردريك الثانى بشأن محاربة الهرطقة، كما أبلغ الحكام بأنه أصدر أوامره إلى الرهبان المتحولين لإرغامهم على ذلك فى حالة شق عصا الطاعة، وفى يوم ٢٩ مايو أقدم البابا على إعادة تنظيم محاكم التفتيش فى لومباردى بأن أصدر تعليماته إلى المسؤول الدينى بتعيين أربعة مفتشين تمتد سلطتهم من مدينتى بولونيا إلى ميناء چنوه، وفى نشوة الانتصار على المهرطقين لم يدخر الراهب راينيرو وسعًا أو يضيع وقتًا فى إقامة محاكم التفتيش فى كل مكان باستثناء الأماكن التى يسيطر عليها المارقون المعروفون باسم الجيبليين(*)، وعلى رأسهم أزيلين وأوبرتو اللذان اعترضا عليها، وحالوا دون إنشائها، وتشير الوثائق إلى أنه فى عام ١٢٥٤ ظهر محققان هما الراهب چيوفانى دا تورينو والراهب بولو دا ميلانو مع نفر من أقرانهما أمام المجلس الجمهورى ليعلنوا أن البابا قد أمرهم بالسماح بدخول محاكم التفتيش فى الأراضى الخاضعة لهم، ولكنه أشار إلى عدم

(*) الجيبليون هم أنصار السلطة الزمنية، والجيلفيون هم أنصار السلطة الروحية.

وجود قوانين خاصة بمحاكمتهم، ومن ثم أصبح من الضرورى استنان هذه القوانين، وبناء عليه صدر أمر ينص على ضرورة الانصياع للمراسيم التى أصدرها إينوسنت الرابع فى هذا الشأن إلى جانب تشريعات فردريك الثانى الخاصة بالهرطقة، وإضافة هذه التشريعات إلى القوانين المحلية، وهذا الأمر نفسه انطبق على كل بقعة فى إيطاليا يجهل فيها الشعب الأمر الكنسى الذى ينص على أن قمع الهرطقة هو الواجب الأول الذى ينبغى على الحكام الاضطلاع به، وحتى عندما توفى البابا إينوسنت الرابع فى ٧ ديسمبر عام ١٢٥٤، ازدادت قوة دفع محاكم التفتيش، فقد أصدر البابا ألكسندر الرابع سلسلة من المراسيم يؤكد فيها القواعد التى استنها سلفه ويشدد على رجال الدين والمحققين أن يبذلوا المزيد من النشاط من أجل القضاء المبرم على الهرطقات، ولتمكين محاكم التفتيش من التغلب على المدن العاصية أو المتقاعسة فى أداء واجبها، والمتراخية فى تسليم المطلوب القبض عليهم إليها، وخولها البابا سلطة معاقبة المروق الدينى بفرض غرامة قدرها مائتا مارك من الفضة، ودعا الراهب راينيريو فى أول أغسطس عام ١٢٥٥ شعب ميلانو إلى الاجتماع فى ميدان ويل ديومو العام، وتلا على الحاضرين طبيعة المهمة المكلف بأدائها وحذرهم من أن وقت التساهل مع الهرطقة قد ولى وانقضى، وقال فى حديثه إلى الشعب إنه غير راض عن زراية الكثيرين بمحاكم التفتيش علنًا فى الشوارع، كما أنه غير راض عن اعتراض البعض عليها والتحرش بها، ولهذا حذر الشعب من مغبة مثل هذه التصرفات غير المسؤولة، وهدد بمعاقبة أصحابها بالطرد من الكنيسة وإنزال العقاب المناسب لهم.

وبمرور الوقت اتضح أن المحققين الأربعة الذين عينهم البابا إينوسنت الرابع فى لومباردى لا يكفون لتغطية كل المنطقة، ولهذا أمر البابا الذى خلفه المسؤول الدينى بزيادة عدد المحققين هناك إلى الضعف أى إلى ثمانية محققين، ويبدو أن هذا المسؤول الدينى كان متراخيًا فى الاستجابة لأمر البابا مما جعله يذكره بحدة بضرورة الإسراع فى تنفيذ أوامره، وعلى أية حال شغل راينيريو فى يناير ١٢٥٧ منصب المحقق العام فى كل من لومباردى وچنوه وتريفيزو، وصار فى صلاحيته تعيين مندوبين عنه، فقام بسد العجز فى عدد المحققين، وفى مارس ١٢٥٦ صدر أمر عاجل إلى جميع رجال الكنيسة بضرورة مساندة المحققين وتقديم كل ما يحتاجون إليه من مساعدة، وفى يناير ١٢٥٧ هدد المتراخين بالعقاب كما وعد خيرًا المتحمسين فى أداء واجبهم، وهكذا أصبح راينيريو المهرطق الكاثارى السابق مالكًا لزمام الموقف، ورغم تنامى سلطته وتعاظمها فإن المارقين أوبرتو وأزيلين ظلا يحتفظان بأراضيهما التى لم يجرؤ أى محقق على الاقتراب منها، فعلى سبيل المثال كانت مقاطعة بياسنزا فى عام ١٢٥٧ خاضعة خضوعًا كاملًا لسيطرة المهرطق أوبرتو، وبلغت سطوته

وعداوته للكنيسة حدًّا جعلها تسحب الأسقف ألبرتو من مقاطعته وتنقله إلى فيرارا، وكانت الأحوال فى فيسنزا الخاضعة لحكم أزيلين أكثر سوءًا وتفاقمًا من الأحوال فى بياسنزا؛ حيث إن المهرطقين فى فيسنزا كان لهم رئيس معروف اسمه پيرو جالو، وقد بلغت سطوة أزيلين حدًّا جعله يحظر على محاكم التفتيش استخدام العنف لردع المارقين، وحين تم تعيين پورتولامنيو دى بريجنانز، وهو أحد تلاميذ القديس دومنيك، أسقفًا فى فيسنزا عام ١٢٥٦، أرغمه أزيلين على هداية المارقين إلى العقيدة الكاثوليكية بالحسنى وليس استخدام القوة، ويقال إن غضب أزيلين منه كان السبب فى استبعاده من أسقفيته، ولكن برناردو فيسلى رئيس الشمامسة ـ الذى اتسم بقدر أكبر من الجسارة والجرأة تفوق جسارة پورتولاميو ـ تمكن فى عام ١٢٥٨ من القبض على الأسقف المهرطق الكاثارى فيفانو بوجولو، وسعى رئيس الأساقفة إلى إقناع سجينه بصحة العقيدة الكاثوليكية، ولكنه لم يفلح فى ذلك، ثم تدخل أزيلين لإطلاق سراح هذا المهرطق.

كان زعماء فريق الجيبيلين فى كل مكان يتمتعون بالنفوذ والسلطة يوفرون الحماية للمهرطقين، وهكذا أصبح زعيمهم أزيلين عدو الكنيسة رقم ١، فلا غرو إذا رأيناها تحاول إخضاعه لسلطاتها، وفى عام ١٢٢١ حين كان البابا جريجورى التاسع يشغل منصب المفوض الباباوى فى لومباردى نجح فى أن ينتزع من أزيلين تأكيدًا بكراهيته للهراطقة، وكان لهذا المهرطق ولدان هما أزيلين الأصغر وألبيريكو، استدعاهما الكرسى الباباوى عام ١٢٣١ للمثول أمام البابا، حيث عبرا عن ارتياعهما من جرائم والدهما ووعدا بتقديمه إلى المحاكمة كمهرطق إذا لم ينصلح حاله ويتخلى عن ضلاله، والذى حدا بهما إلى ذلك أنهما خشيا أن يطبق عليهما قانون فردريك الثانى الذى ينص على حرمان أنجال المهرطق من وراثة أبيهم، بل إنهما عبرا عن استعدادهما لحمل رسائل من البابا جريجورى إلى والدهما تقرعه تقريعًا شديدًا على حمايته للمهرطقين، كما أن جريجورى أبلغه بأنه فى حالة اعترافه بخطئه وقيامه بطرد جميع المهرطقين من بلاده فسوف يمكن للكرسى الباباوى أن يتصالح معه، وإذا لم يفعل ذلك فسوف يفتح أمامه باب الجحيم على مصراعيه، كما أن ممتلكاته وأراضيه سوف تصادر كى يصبح عبرة لمن يعتبر، وفى واقع الأمر أظهر أزيلين فى وجه الكنيسة شجاعة فائقة، والجدير بالذكر أن فردريك الثانى بعد أن تغلب على المقاومة فى لومباردى وضمها إليه، قام فى عام ١٢٣٨ بتزويج ابنته غير الشرعية سيلفاجيا بأزيلين ثم عين زوج ابنته راعيًّا كنسيًّا فى إمبراطوريته.

على أية حال كانت رسائل البابا جريجورى إلى أزيلين المؤرخة فى ١ سبتمبر ١٢٣١ مجرد خدعة، فالبابا لم يكن على استعداد لأن ينتظر شهرين كاملين لمثول أزيلين أمامه، ومن ثم قام

على وجه السرعة بتنفيذ وعيده فى ٤ سبتمبر، وأصدر أمره إلى أساقفة ريجيو وموديا وبريسكيا ومانتوا لمصادرة أراضى أزيلين، ولكن المحاولة باءت بالفشل، الأمر الذى حدا بالبابا إلى أن يرسل عام ١٢٣٣ الراهب چيوفانى ساشيو فى مهمة صلح وسلام مع هذا المهرطق، وفى سبيل تهدئة الأوضاع اقترح الراهب چيوفانى تبرئة المتمرد أزيلين من الذنب على الرغم من استمراره فى حماية المهرطقين، وعندما تصالح الإمبراطور فردريك الثانى مع الكنيسة كان ذلك على حساب أزيلين وخذلانًا له، وعندما تفجر الصراع بين الإمبراطور فردريك الثانى والكنيسة بسبب قيام الإمبراطور بإخضاع لومباردى إلى سلطانه، بدأت الكنيسة تهاجم أزيلين من جديد وشن الحرب عليه، ولم تكتف الكنيسة بطرد الإمبراطور فردريك من الكنيسة فى ١٧ أبريل ١٢٣٩، بل مضت فى ٢٠ نوفمبر من العام نفسه فى طرد أزيلين منها لمدة تزيد على ثلاثة أعوام، وأمهلته الكنيسة شهرًا واحدًا للاستسلام، فإذا أبى وتكبر هددته باتخاذ الإجراءات ضده باعتباره مهرطقًا، ولكن هذه الإجراءات لم تأت بأية نتيجة، ولهذا قرر البابا إينوسنت الرابع فى عام ١٢٤٤ أن تتدخل محاكم التفتيش لوضع أزيلين عند حده، وكلف الراهب رولاندو دى كريمونا الذى تميز بالجرأة والإقدام بالتحقيق معه بتهمة الهرطقة ومخالطة المهرطقين، وبالنظر إلى سطوة المتهم ونفوذه سمح البابا للمحقق بنشر عريضة الاتهام فى مكان آمن لا يطوله شر المهرطق وأذاه، وقد تمت محاكمة هذا المهرطق غيابيًّا وانتهت المحكمة إلى أنه مهرطق ورث الكفر والهرطقة عن والده، وأنه ينحدر من عائلة موصوفة بالهرطقة وأنه شجع على انتشارها فى تريفيزو، وفى مارس ١٢٤٨ أدانه البابا إينوسنت كمهرطق، ولكنه وعده بأن تعامله الكنيسة برأفة إذا سلم نفسه إليها فى يوم صعود السيد المسيح (الموافق ٢٨ مايو من ذلك العام)، ولكن أزيلين الحذر رفض أن يضع نفسه تحت رحمة البابا، فأرسل إليه البابا مبعوثين وعدوه ببراءته من الهرطقة إذا أقسم على ولائه للعقيدة الكاثوليكية، وأصر البابا على مثوله بشخصه أمامه ووعده بأن يوفر له الأمان، ولكن أزيلين المرتاب فى نيات البابا نحوه رفض الامتثال لأوامره، الأمر الذى اضطر البابا إلى حرمانه من الكنيسة وطرده منها، وبعد مضى سنتين أبلغ أزيلين بأنه إذا امتنع عن الحضور فى أول أغسطس ١٢٥٠ فسوف تطبق عليه قوانين الهرطقة، وفى يونيو ١٢٥١ أمر البابا كلًّا من أسقف تريفيزو ومسؤول مانتوا الدينى باستدعاء أزيلين للحضور شخصيًّا فى موعد معين وإعطائه جميع الضمانات الخاصة بأمنه، فإذا شق عصا الطاعة أصبح من حق شعبه فى تريفيزو أن يرغمه على الامتثال لسلطة البابا، فإذا فشل الشعب فى ذلك استحق حرب صليبية ضده.

ومن أجل زيادة سلطاته الزمنية، لجأ البابا إلى إدانة أعدائه السياسيين ورميهم بتهمة الهرطقة،

وفى أبريل عام ١٢٥٣ تشاجر البابا إينوسنت الرابع مع براتساليون عضو مجلس الشيوخ فى روما، فأمر الرهبان الدومنيكان فى محافظة روما بشن حرب صليبية عليه وعلى ما أسماه هراطقة توسكانى، وأيضًا جرت الاستعدادات على نطاق واسع لسحق الهرطقة المتفشية فى إقليم لومباردى، وظل الكرسى الباباوى على مدى سنتين يصدر سلسلة من المراسيم لرجال الكنيسة والمحققين كى يتصدوا لهذه الهرطقة ويقدموا صكوك الغفران للمتصدين لها، وأيضًا نصت صكوك الغفران على تبرئة أصحاب الممتلكات التى تمت مصادرتها عن طريق الخطأ بشرط أن يسهموا فى شن حرب صليبية ضد المهرطقين، وبذلك أصبحت الكنيسة فى وضع أقرب ما يكون إلى الشريك فى جرائم السطو والسرقة، وأيضًا اعتبرت هذه المراسيم كل من يمتنع عن المساعدة فى هذه الحرب كشريك فى الهرطقة، وكبداية صدر مرسوم فى ٩ أبريل ١٢٥٤ ينص على أن يقوم أزيلين بتسليم نفسه فى يوم صعود السيد المسيح كما أسلفنا، وإلا عاملته محاكم التفتيش كمهرطق، وهكذا بدأت محاكم التفتيش تظهر كمؤسسة يمكن للبابا أن يعتمد عليها فى تدعيم نفوذه.

الهرطقة والبابا ألكسندر الرابع (١٢٥٤ ــ ١٢٦١)

غير أن موت البابا إينوسنت الرابع أسهم فى شن الحملة الصليبية المزمعة، وأخيرًا بدأ شن الحملة فى يونيو ١٢٥٦ فخرجت من البندقية بقيادة المفوض الباباوى فيليبو رئيس أساقفة راڤينا، وفى بادئ الأمر أصابت الحملة الصليبية نجاحًا فى الهجوم على پادوا معقل أزيلين، وشجعت هذه البداية الناجحة الكنيسة على المضى فى حملتها، ولكن الجنود المنضوين تحت لواء الكنيسة عاثوا فى المدينة فسادًا وسلبًا ونهبًا لمدة أسبوع كامل، الأمر الذى يدل على أن دوافعهم لم تكن روحية بحتة، وسرعان ما فقدت الحملة قوة دفعها، ثم ما لبث جيش الكنيسة أن اندحر فى عام ١٢٥٨ بالقرب من مدينة بريسكيا التى سقطت فى يد المتمرد أزيلين الذى كان يطمع أيضًا فى الاستيلاء على ميلانو؛ حيث كانت تربطه بحزب الجيبلليين علاقة وثيقة، ولكن الحظ سرعان ما خذله ودارت عليه الدوائر.

تحالف أزيلين مع زعيمى حزب الجيبلليين فى إقليم لومباردى، وهما أوبرتو بالافسينو وبوزو دى دوفارا؛ حيث إنهما ساعداه فى الاستيلاء على بريسكيا على أمل اقتسام الغنيمة معه، ولكنه احتكر الغنيمة لنفسه، ولهذا قررا الانتقام منه، وفى ١١ يونيو عام ١٢٥٩ وقع هذان الزعيمان مع أهل ميلانو ومع أزو ديست زعيم حزب الجيلفيين المتمرد فى لومباردى معاهدة ضد أزيلين الذى ظن أن بمقدوره الاستيلاء على ميلانو بمفرده، ولكن منافسيه بادروا بالهجوم على قواته واستطاعوا

تشتيتها والقبض عليه بعد إصابته بجرح بالغ كان السبب فى وفاته فى غضون أيام قلائل، وهكذا أسدى أوبرتو خدمة جليلة للكنيسة بإزاحة أزيلين الذى تمرد عليها لمدة ثلاثين عامًا، وأتاح الانتصار على أزيلين الفرصة أمام محاكم التفتيش للدخول فى تريفيزو، وعبرت الكنيسة بعض الشىء عن امتنانها لأعداء أزيلين الذين تخلصوا منه، فقد قامت بتبرئة أوبرتو، وبوزو وأهل كريمونا، وإلغاء أمر الحرمان الكنسى الصادر ضدهم، ولكن البابا ألكسندر الرابع كتب بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٢٥٩ إلى المفوض الباباوى فى لومباردى يقول إن مثل هذه التبرئة عديمة القيمة؛ لأنها جاءت من غير المختصين، فالقائم بها لم يكن راهبًا من طائفة الدومنيكان أو الفرنسيسكان الذين لهم حق التبرئة، وأضاف البابا ألكسندر الرابع أنه يتعين عليهم أن يردوا إلى الكنيسة كل أملاكها إذا كانوا راغبين فى الحصول على التبرئة.

ويبدو أن نشوة الانتصار على أزيلين لعبت برأس البابا ألكسندر فلم يدرك مدى خطورة أوبرتو عليه، فقد استطاع أوبرتو عن طريق التآمر مع نبلاء ميلانو الأقوياء أن يخلق حزبًا قويًّا يناصره فى تلك المدينة، كما استطاع فى عام ١٢٦٠ أن ينتخب حاكمًا لها لمدة خمسة أعوام، وعبثًا حاول المحقق راينيريو ساكونى منعه من اعتلاء أريكة الحكم، فجمع أهالى ميلانو ووجه بشدة إلى أوبرتو تهمة الهرطقة والدفاع عن المهرطقين، وهدد بتعريض الشعب لاستخدام القوة وقمعه، ولكن الأهالى رفضوا الاستجابة له، واعتبروا تدخل راينيريو فى شؤونهم الداخلية نوعًا من الوقاحة فهو غريب عنهم، واستشاط الأهالى غضبًا فهاجموا دير الدومنيكان، وخيروا راينيريو بين مغادرة المدينة أو معاملته بطريقة غير كريمة ففضل الرحيل على سوء المعاملة.

وعبثًا أمر البابا ألكسندر راينيريو والمحققين الآخرين بتقديم الأحزاب المذنبة إلى المحاكمة، وأيضًا عبثًا وافق هذا البابا على القوانين التى استنتها أخيرًا منظمة المدافعين عن العقيدة التى تأسست فى ميلانو احتفاءً بالسيد المسيح والعذراء مريم ويوحنا المعمدان والقديس بطرس الشهيد، والتى تعهد أعضاؤها بتقديم العون المسلح وغيره من المعونات إلى محاكم التفتيش الساعية إلى استئصال شأفة الهرطقة، وهكذا أصبح أوبرتو الآن أقوى رجل فى لومباردى، وحينما تمتع بالنفوذ حظر أوبرتو على محاكم التفتيش تأدية عملها، ولهذا كان المهرطقون آمنين فى عهده، وجاؤوا إلى المناطق الخاضعة لحكمه من كل فج عميق، من لومباردى الإيطالية ولانجويدوك وبروڤنس الفرنسية، وكان أحد المقربين إليه رجل يدعى بيرنجير سبقت إدانته بتهمة الهرطقة، وكرر البابا ألكسندر مع أوبرتو المهزلة نفسها التى صنعها مع أزيلين عندما قدمه إلى المحاكمة، ففى ٩ ديسمبر ١٢٦٠ أصدر تعليماته إلى المحققين فى لومباردى لتوجيه الاتهام إلى بيرجير وتوفير رحلة آمنة له حتى يمثل

فى حضرة البابا خلال شهرين لإثبات براءته، وليقسم قسم الطاعة والولاء للكرسى الباباوى والمندوبين عنه، فإذا لم يمتثل اتخذت محاكم التفتيش ضده جميع الإجراءات اللازمة.

ولم يأبه أوبرتو بهذا الاستدعاء الباباوى تمامًا كما فعل أزيلين من قبل، بل أخذ يحصن مواقعه ويضم المدن المختلفة إليه مدينة تلو الأخرى رغم التعليمات التى أصدرها البابا إلى مندوبه راينيريو بشن حملة صليبية ضده، وأمام هذه العقبات الكأداء التى واجهتها محاكم التفتيش الإيطالية بدت هذه المحاكم عاجزة عن التصدى للهرطقة، وأحدقت الأخطار بالمحققين فى غدواتهم وروحاتهم لدرجة أنهم باتوا يحتاجون للحراسة، وأدت مشاعر الناس المشحونة والغاضبة فى برجامو فى عام ١٢٦٤ إلى دفاعهم عن أنفسهم ضد تعسف محاكم التفتيش، وبطبيعة الحال أدى هذا إلى إغضاب رجال الإكليروس فى إيطاليا، فقرروا أنه يتعين على كل مطرود من الكنيسة أن يقسم بولائه للكنيسة أمام المدعى أو الأسقف، ثم يقسم مرة أخرى أمام البودستا (المسؤول الدينى) على دفع غرامة قدرها مائة سول فى كل مرة ينحرف فيها عن جادة الطريق ليصبح بعد دفع الغرامة صالحًا لتولى الوظائف فى مجلس المدينة. كان عجز محاكم التفتيش واضحًا للعيان فى المناطق الخاضعة لسيطرة أوبرتو، غير أن محاكم التفتيش فى لومباردى الخارجة عن تلك الأراضى اشتد ساعدها واستطاعت القيام بواجبها، ولهذا نرى البابا كليمنت الرابع يصدر فى وثوق بالنفس فى عامى ١٢٦٥ و١٢٦٦ تعليمات تحدد تعيين المحققين وواجباتهم الأمر الذى ينم عن أن محاكم التفتيش أخذت تستجمع قواها.

شارل أنجو الحليف الجديد للكنيسة وسيد إيطاليا كلها

وفى مناوراتها السياسية وجدت الكنيسة الكاثوليكية فى شارل أنجو خير حليف لها، ونجحت الكنيسة فى إثارة طموحه وأعلنت تأييدها ومساندتها له بأن شنت حملة صليبية باسمه، بل إنها راهنت بكل شىء من أجل نجاحه، وأصدرت الكنيسة بهذه المناسبة عددًا هائلًا من صكوك الغفران لتوزيعها على كل إنسان يسهم بربع دخله أو عشر ممتلكاته لمؤازرة هذه الحملة، ولم تبخل الكنيسة على هذه الحملة بكل ما تملكه من غال وثمين، ومنحته كل من فرنسا وفلاندرز جانبًا كبيرًا من دخل كنائسها، وعندما تبين أن هذا التمويل ليس كافيًا، منحه البابا كليمنت الرابع ممتلكات الكنيسة بلا أدنى تردد، وبلغ تحمس هذا البابا لشارل أنجو مبلغًا جعله يرهن مجوهرات الكرسى الباباوى من أجله، وأصبحت خزائن الكرسى الباباوى خاوية لدرجة أنه لم يعد لديه ما ينفقه على رجال الإكليروس، فطلب منهم أن يشدوا الأحزمة على بطونهم.

وعبثًا حاول بالافيسينو أن يحول دون مرور أفراد الحملة الصليبية داخل لومباردى، ويمكن القول إن مصير الكرسى الباباوى تقرر فى ٢٦ فبراير ١٢٦٦ فوق سهول بنيفنتو، حيث اشتبكت قوات الجيلفيين مع قوات الجيبليين، ولو أن هذه المواجهة انتهت بهزيمة شارل أنجو للحقت طامة كبرى بالكرسى الباباوى، ولكن أسفرت المعركة عن انتصار الحليف الباباوى شارل أنجو الأمر الذى أدخل البهجة والانشراح فى نفس بابا روما، فقد تمكن أنجو من قمع أوبرتو وإخضاع فلورنسا وسيينا وبستوجا وپيزا لنفوذه، وأعلن البابا والفرحة تغمر فؤاده أنه تم إخضاع المارق المتمرد أوبرتو إلى جانب بياسنزا وكريمونا. وبالرغم من انكسار أوبرتو فقد قام باستدعاء الأمير الشاب كونرادين إلى إيطاليا كى يحارب بجانبه، غير أن هذا الأمير وقع فى أسر قوات شارل أنجو فى أغسطس عام ١٢٦٨، ثم نفذ فيه حكم الإعدام بطريقة وحشية بعد شهرين من أسره، وهكذا اندحر حزب الجيبليين وفقد كل أمل فى مواصلة القتال، وأصبح شارل أنجو سيدًا على كل أرجاء إيطاليا وعينه البابا راعيًا إمبراطوريًّا لكنيسة فى منطقة توسكانى، وقرب نهاية عام ١٢٦٨ مات بالافيسنيو فى شيخوخة بائسة، وهو محاصر فى قلعة جوسياليجيو من قبل أهل بياسنزا وبارميسا، وأحاط الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان به وهو على فراش الموت واستمعوا إلى اعترافه بذنبه وقبلوا توبته.

انفراجة إنشاء محاكم التفتيش

وبانتصار القوات الحليفة للبابا لم يعد هناك أى ملجأ يلوذ به الهراطقة، ومن ثم أمكن إنشاء محاكم التفتيش فى كل مكان، وأمكن لهذه المحاكم أن تؤدى وظيفتها بدون عوائق، وبمرور الوقت أصبحت هذه المحاكم تتبع قواعد وإجراءات معينة ومحددة ليس حولها أى خلاف، وفى عام ١٢٥٤ قام البابا إينوسنت الرابع بتقسيم شبه الجزيرة الإيطالية على طائفتى الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان، فأعطى چنوه ولومباردى إلى الدومنيكان، ووسط إيطاليا وجنوبها إلى الفرنسيسكان، وتم تعيين اثنين من المحققين لكل من مقاطعتى رومان وتوسكانى، واكتفى البابا بتعيين محقق واحد لكل من مقاطعتى القديس فرانس والقديس سبوليتو، ولكن تم تزويد كل من هذين المحققين بمعاونين، فضلًا على أن البابا طلب من المسؤول الدينى المحلى تعيين عدد إضافى من المساعدين تلبية لطلبات المحققين حتى تتمكن محاكم التفتيش من العمل بكفاءة واقتدار، وعمل فى منطقة لومباردى ثمانية محققين. وعندما قام الرهبان الدومنيكان بتجزئة منطقة لومباردى عام ١٣٠٣ ارتفع عدد المحققين هناك من ثمانية إلى عشرة محققين، عمل سبعة منهم فى لومباردى العليا، والثلاثة الآخرون فى لومباردى السفلى، وقد عهد البابا إلى طائفة الفرنسيسكان بإدارة محاكم

التفتيش فى كل من تيريفيزو، ورفا جنولا، ولكن الأهالى سرعان ما جاؤوا بالشكوى من ابتزازهم وسوء معاملتهم، الأمر الذى دعا البابا بونيفاس الثامن إلى تكليف الرهبان الدومنيكان بإدارة هذه المحاكم دون أن يخفض هذا التغيير من وطأتها على الأهالى.

ولم تضيع الكنيسة الرومانية أى وقت فى القضاء على المروق الدينى فى الأراضى التى كانت فى يوم من الأيام خاضعة لسيطرة حزب الجيبلليين، وفى فبراير ١٢٥٩ صدر الأمر إلى الراهب الفرنسيسكانى فى بولونيا بتعيين راهبين كمحققين فى محكمة تفتيش روما جنولا، ولمجرد عودة الهدوء والسلام إلى فيسنزا بعد وفاة المارق أزيلين، أرسل الراهب چيوفانى سكيو إلى تلك المدينة ليرفع عن كاهل سكانها عقوبة الطرد الكنسى المفروض عليهم نتيجة تبعيتهم للمتمرد أزيلين وخضوعهم لسيطرته، وبالفعل تمت مراسم تطهير شعب فيسنزا من الذنوب، وبمجرد أن سمع الأسقف المنفى بورتولامبو بموت أزيلين عاد إلى روما على جناح السرعة، وفى الحال بدأ فى إنشاء كنيسة عظيمة تابعة لطائفة الدومنيكان ودير كبير فى سانتا كورونا، وقد أنشئت الكنيسة فى الموقع نفسه الذى كان المهرطقون فيما مضى يحتلونه ويمارسون فيه شعائرهم المهرطقة، وقام مهرطق سابق كبير يدعى جييريميا مع ابنه بنبذ هرطقتهما واعتناق المذهب الكاثوليكى، والجدير بالذكر أن جييريميا فى زمن هرطقته كان يشغل منصب رئيس الأساقفة، أما المهرطق فيفيانو بوفلو فقد هرب إلى بافيا، غير أن الكنيسة أمسكته وقامت بحرقه، وأيضًا امتد الحرق إلى شماسيه، أو لديركو دى مارولا وتولومبو مع ثمانية آخرين أصروا على السير فى طريق الغى والضلال، ويبدو أن هذا كان كافيًا لردع المهرطقين ومحق الهرطقة.

حرق حمولة ٢٨ عربة من المهرطقين

ولكن محاكم التفتيش وجدت أحيانًا فى بعض الأماكن صعوبة كبيرة فى محق المهرطقين، ففى بياسنزا مثلًا اضطرت الكنيسة إلى حرق عدد كبير من المهرطقين، اكتظت بحمولتهم ثمانٍ وعشرون عربة، وظل سكان سيرميون يتحدون محاكم التفتيش لمدة ستة عشر عامًا، ويرفضون السماح لها باضطهاد المهرطقين، ورغم أن أهل سيرميون كانوا يدينون بالعقيدة الكاثوليكية فإنهم وفروا الحماية للمهرطقين، الأمر الذى جعلهم يلوذون بهم جماعات وزرافات كلما شددت محاكم التفتيش النكير عليهم فى الأماكن الأخرى، وعبثًا حاول المحقق الراهب تيميديو الاستدلال على المهرطقين فى سيرميون عن طريق دس جاسوسة بينهم اسمها كوستانزا دى بيرجامو، تظاهرت بالهرطقة كى يسهل عليها الاندساس بين المهرطقين، وعز على الكنيسة الكاثوليكية أن تبلغ هذا

الحد من الضعف والتخاذل فى معاملة المهرطقين، ولهذا مارس أسقف ڤيرونا ضغطًا على ماستينو وألبرتو ديلا سكالا فى ڤيرونا، وبنيامونت دى بوناكولسى فى مانتوا لكى يفرضا الطاعة والولاء على سيرميون المارقة، واضطرت هذه المدينة فى عام ١٢٧٦ إلى الخضوع وسلمت مائة وأربعة وسبعين مهرطقًا طالبة عودتها وقبولها فى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، ولكن الراهب فيليپو بوناكورسو محقق تريفيزو كتب إلى البابا يوحنا الحادى والعشرين (١٢٧٦ ـ ١٢٧٧) يطلب منه التعليمات الخاصة بطريقة معاملة المهرطقين التائبين، وكان هذا البابا مرهف الحس ودقيق المشاعر فأظهر الرحمة نحو المهرطقين، وأمر البابا الراهب فيليپو بإلغاء العقوبات المفروضة على المدينة إذا أعلن ممثل عنها ومتحدث بلسانها نبذ سكانها للهرطقة، وأقسم بأنه سوف يلقى القبض فى المستقبل على المهرطقين ويسلمهم إلى محاكم التفتيش، وتعين على كل ساكن فى هذه المدينة الحضور بشخصه أمام المحقق والاعتراف الكامل بكل ما يعرفه عن مهرطقيها، فضلًا على نقد الهرطقة وقبول عقوبة التوبة التى يفرضها المحقق عليه، وكانت محاكم التفتيش رحيمة بهم فاستبعدت من أحكامها عقوبتى السجن ومصادرة الأملاك، وأمر المحقق بسجل وافٍ ودقيق لكل حالة، وفى حالة عودة المهرطق التائب إلى سابق هرطقته، يتعرض لأشد العقوبات المنصوص عليها فى القانون، وقد استمر سبعون مهرطقًا سادرين فى غيهم وضلالهم، فأدانهم الراهب فيليپو وأصدر عليهم حكمًا بالحرق، وفى عام ١٢٧٨ تم بناء دير فرنسيسكانى فى سيرميون من حصيلة الغرامة البالغ قدرها أربعة آلاف ليرة المفروضة على مدينة ڤيرونا، كشرط لرفع الحظر الكنسى المفروض عليها بسبب وقوفها بجانب المارق كوادرين، وفى عام ١٢٨٩ أعطيت قلعة إيلاسيو التى يمتلكها المتمرد أزيلين إلى بعض النبلاء كمكافأة لهم على الدور البارز الذى لعبوه فى إخضاع مدينة سيرميون إلى سلطة محاكم التفتيش.

وعندما لم تجد الهرطقة من يحميها تلاشت بالتدريج من البلاد وترسخت أقدام محاكم التفتيش فى ربوعها، وفى الأراضى التى كانت يومًا ما خاضعة لنفوذ حزب الجيبلين المتمرد، لم يأمن أحد ـ حتى الراسخون فى الإيمان بالعقيدة الكاثوليكية ـ من أذاها إذا هو أثار غضبها، أو كان يملك ثروة طائلة تجعلها تحسده عليها، ونتيجة رغبة الكنيسة العارمة فى التخلص من أعدائها السياسيين المتمثلين فى أزيلين وحزبه، كان يكفى لمصادرة أملاك أى شخص بتهمة الهرطقة أن يكون فى يوم من الأيام خاضعًا لسيطرة هذا المتمرد، وحتى بعد أن مات المتمرد أزيلين لم تنس محاكم التفتيش أفعاله، فقامت بدافع الانتقام بحرمان أحفاده من الميراث، والذى حدا بمحاكم التفتيش إلى أن ترتكب مثل هذا الشطط هو عزمها الذى لا يلين على الانتقام من كل من تجرأ عليها فى يوم من الأيام،

وأخيرًا استجارت سلطات فسينزا من هذه المعاملة الجائرة وشكت إلى البابا بنديكت الحادى عشر أن يوقف محاكم التفتيش عند حدها ولا يدع البقية الباقية فى حزب أزيلين ونسلهم يعاملون على هذا النحو الوحشى، وبالفعل استجاب البابا إلى التماسهم، وشجعه على هذه الاستجابة نجاح الكنيسة فى كسر شوكة الهرطقة.

ولكن سيطرة محاكم التفتيش الكاسحة لم تمنع من وجود جيوب متفرقة للمقاومة، ففى عام ١٢٧٧، اضطلع الراهب كواردو باجانو بشن حملة على الهرطقة فى فالتيلن التى اتسع نطاقها بدليل أن هذا الراهب ذهب إلى هناك بصحبة اثنين من زملائه واثنين من الكتبة أو المسجلين، ولم يسلم الراهب كواردو باجانو من اعتداء شانئيه عليه بسبب شدة قسوته، وحين نقل جثمانه إلى مدينة كومو كانت جروحه الثخينة تنزف دمًا، الأمر الذى جعل طائفة الدومنيكان التى يتبعها تُنصبه قديسًا، وسعى البابا نيكولاس الثالث (١٢٧٧ ـ ١٢٨٠) إلى الانتقام لهذا الشهيد من قاتليه مستعينًا برودلف هامسبرج، وغمرته الفرحة العظيمة عندما تمكن شعب برجامو من أسر كواردو والمتواطئين معه، وفى الحال طلب البابا تسليمهم للمثول أمام ثلاثة محققين هم أنسلمود دا أنساندريا، ودانيل دى جيوسانو، وجويدون دا كوكونات الذين أمرهم البابا بإنزال أشد العقاب بمرتكبى هذه الجريمة النكراء حتى يصبحوا عبرة لمن يعتبر.

وفجأة انفجر الشعب فى بارما ضد محاكم التفتيش، على الرغم من أن الراهب فلوريو طارد المهرطقين بكل همة ولاحقهم بكل نشاط وأحرق عددًا لا يحصى منهم، وعندما كان هذا الراهب فى بارما تصادف أن جاءته امرأة متهمة بالانتكاس أو الردة وعقوبتها الحرق، فأثار هذا حفيظة أهل بارما ودفعهم إلى نهب دير الدومنيكان وتدمير سجلات محاكم التفتيش، والاعتداء على الرهبان لدرجة أن واحدًا منهم لفظ أنفاسه الأخيرة فى غضون بضعة أيام، فاضطر زملاؤه الدومنيكان إلى الرحيل من هذه المدينة العاصية فى موكب مهيب، ولم يظهر قضاتها أدنى اهتمام بمعاقبة المسؤولين عن هذا الاعتداء، وعندما استدعاهم المفوض الباباوى الكاردينال أوستيا لمساءلتهم، تعللوا بأنهم لا يتمتعون بأية سلطة، فقام الكاردينال بفرض الحظر الكنسى على المدينة بأسرها، ولم يرفع هذا الحظر إلا فى عام ١٢٨٢ دون أن يلحق بالمذنبين من أهل بارما أى عقاب، ولهذا قام البابا هونوريوس الرابع (١٢٨٥ ـ ١٢٨٧) فى عام ١٢٨٥ بإعادة فتح ملفات القضية وطلب من أهل بارما أن يبعثوا إليه مندوبين عنهم فى خلال شهر ليتسلموا الأحكام الصادرة، غير أن التاريخ لا يذكر لنا نوع هذه الأحكام، وفى عام ١٢٨٧ رفع الأهالى الأذلاء التماسًا إلى الرهبان الدومنيكان كى يعودوا إلى بارما؛ حيث استقبلوا بكل تقدير وحفاوة، وأيضًا تعهد الأهالى بإعطائهم ألف

ليرة تقسط على خمسة أعوام وتخصص لبناء كنيسة، وإذا كانت مدينة بارما ركعت على ركبتيها فإن بعض المدن الأخرى استمرت فى تحديها وتشبثت بعنادها ضد الكنيسة، لدرجة أن المجلس المحلى لمدينة ميلانو هدد بالويل والثبور وعظائم الأمور كل من تسول له نفسه حماية المهرطقين أو مساندتهم.

الهرطقة فى روما وما حولها

حتى روما نفسها لم تخل من الهرطقة، وعندما تمكن الكرسى الباباوى عام ١٢٥٤ من الانتصار على المهرطقين، حث البابا إينوسنت الرابع المحققين فى كل من أورفيتو وأناجنى على انتهاز هذه الفرصة السانحة للانقضاض على المهرطقين هناك، وفى عام ١٢٥٨ حذر البابا ألكسندر الرابع من نمو الهرطقة حتى فى روما نفسها، ولهذا مارس الضغوط على المحققين والأساقفة كى يكثفوا جهودهم الهادفة لقمع الهرطقة، ولكن بعض هذه الجهود لم تكلل بالنجاح، فبعد انقضاء عشرين عامًا تحصن فارس مهرطق اسمه باندولفو فى موقع يقال له كاسترو سبريانى بالقرب من أناجنى، وجعل من هذا الموقع ملاذًا يلجأ إليه الهراطقة، وعبثًا حاول الراهب سينيبالدو دى لاجو الذى يشغل وظيفة محقق فى محافظة روما أن يقدمه إلى المحاكمة، وفى عام ١٢٧٨ أرسل البابا نيكولاس الثالث كاتبه ليعرض على هؤلاء المهرطقين العفو عنهم نظير طاعة البابا والكنيسة، ولكنهم رفضوا بكل إباء وشمم الأمر الذى اضطر البابا إلى إصدار أوامره إلى أورسو أورسينى قائد الكنيسة العسكرى فى توسكانى، كى يجمع قواته ويقدم إلى الراهب سينيبالدو مساعدة عسكرية كافية لإرغامهم على التوبة.

وحدث أمر مماثل عام ١٢٦٠ ضد نبيل فى فيتربيا اسمه كابيلو دى تشيا، فقد تشكل جيش من أهل فيتربيا لمساعدة المحقق، وكان دافعهم إلى ذلك سياسيًّا بعض الشىء، حيث تفشت الهرطقة فى مدينتهم، وفى عام ١٢٦٥ قام المارق مانفريد بتحريض شعب فيتربيا على التمرد ضد محاكم التفتيش، ولكن هذه المحاكم استطاعت قمع تمردهم بعد أن ذبحوا اثنين من الرهبان ذبح الشاة، وفى عام ١٢٧٩ عبر البابا نيكولاس عن حسرته؛ لأنه عجز عندما كان يشغل وظيفة المحقق العام ورغم كل ما بذله من جهد جهيد فى التصدى للهرطقة، عن دحر المهرطقين الذين ظلوا يختبئون هناك، الأمر الذى جعل هذا البابا يصدر أوامره إلى الراهب سينيبالدو كى يذهب إلى تلك المدينة؛ كى يحقق مع أهلها بكل حرص ودقة.

لقد بذلت محاكم التفتيش الإيطالية قصارى جهدها للقضاء على الهرطقة، ورغم مجهودها

الواضح فى هذا الشأن فقد ظلت الهرطقة تنتشر فى السر، كما ظلت تنظيماتها تعمل فى الخفاء، ويدل التحقيق الذى أجرى بشأن بونجيلوبو من فيرارا على النجاح الذى أصابته محاكم التفتيش فى محق الهرطقة فى تلك المدينة، ولكن هناك أيضًا من الشواهد ما يدل على استمرار الهرطقة فى ربوع منطقة فيرارا، وكذلك هناك إشارات إلى وجود مهرطقين كثيرين فى فيسنزا وبرجامو وريمينى وڤيرونا، ونحن نرى فى ڤيرونا حرق إحدى وصيفات البلاط واسمها سبيرا فى عام ١٢٧٠، وفى ذلك الوقت تقريبًا كان هناك أسقفان مهرطقان يؤمنان بالمذهب الكاثارى هما ألبرتو وبونافنتورا بليسماجرا، واستطاع المهرطقون أن يؤسسوا تنظيمًا سريًّا يمتد إلى كل المدن الإيطالية يستقبل الوافدين من الزوار الهراطقة، وكان الهراطقة الطلقاء يزودون زملاءهم فى السجن بما يحتاجون إليه من ضروريات. ونستدل من الإشارات التى سجلها المحقق الشهير برنارد جوى على أن المهرطقين الكاثاريين فى منطقة لانجويدوك [جنوب فرنسا] ظلوا حتى أواخر القرن الرابع عشر يتطلعون إلى إيطاليا كملاذ آمن لهم، ولم يجد الهراطقة المهاجرون من لانجويدوك فى فرنسا أية متاعب فى العثور على أقران لهم فى الهرطقة فى منطقة لومباردى الإيطالية أو منطقة توسكانى أو مملكة صقلية، وكان هؤلاء الهراطقة يجدون فى منطقة لومباردى بالذات قساوسة مهرطقين يعلمونهم شعائر الهرطقة وطقوسها.

أرمانو المهرطق

ما بين القداسة إلى حرق رفاته

وكانت الهرطقة أحيانًا تتخفى وراء قناع من العقيدة الدينية الراسخة، الأمر الذى جعل من العسير اكتشافها، كما يتجلى لنا ذلك من قضية أرمانو بونجلوبو الذى ينحدر من أبوين يدينان بالهرطقة الكاثارية، فضلًا على أن زوجته كانت مارقة، وفى عام ١٢٥٤ اكتشف أمره وزج به فى السجن، واعترف هذا الرجل بهرطقته ونبذها فأطلق سراحه، ولكن أسقفًا كاثاريًّا أحله من قسمه ضد هرطقته، وقبل عودته إلى الهرطقة الكاثارية التى ظل وفيًّا لها حتى وفاته فى عام ١٢٦٩، يقدم المساعدات لزملائه الذين كان حظهم العاثر أن يقعوا فى يد محاكم التفتيش، ورغم هذا التعاطف الشديد مع المهرطقين فإنه احتفظ بمظهر خادع وحمل المتعاملين معه على الظن خطأ أنه كاثوليكى لا ريب فيه؛ حيث إنه كان مواظبًا على حضور القداس والاعتراف أمام كاهن الاعتراف واشتهر بالتقوى والورع والصلاح، وانخدعت الكنيسة الكاثوليكية بمظهره لدرجة أنها كرمته بدفنه فى كاتدرائية، واشتهر رفاته بصنع المعجزات، وذاعت قداسته فى العالمين لدرجة أن قبره تحول

إلى مزار دينى مما در على المحراب المقام فوق رفاته دخلًا كبيرًا، ولأن الشعب اعتبره قديسًا فقد طالبت الكنيسة بتنصيبه واحدًا من القديسين الرسميين للكنيسة، ولكن محاكم التفتيش تصدت لهذا المطلب الشعبى الكاسح؛ لأن المهرطقين فى الاعترافات التى أدلوا بها ذكروا اسمه باعتباره واحدًا من أكثرهم نشاطًا، واستمر الصراع محتدمًا لمدة اثنتين وثلاثين سنة بين محاكم التفتيش الرافضة لتقديسه والرغبة الشعبية الجارفة فى تطويقه، وما أن وورى رفاته الثرى فى الكاتدرائية حتى أمر الراهب المحقق أولدوبرافدينى رؤساء القساوسة باستخراج جثته من القبر وحرقها، ولكنهم رفضوا، فقام بطردهم من الكنيسة وفرض الحظر الكنسى على الكاتدرائية، فشكوا إلى البابا جريجورى العاشر وانصرفوا إلى جمع الأدلة التى تثبت أن الرجل يستحق التقديس، وأدلى مريدوه بشهاداتهم فأكدوا أنه كان يشفى المرضى ويفتح عيون العميان ويجعل العاجزين قادرين على المشى، ثم مات البابا والمحقق ألدوبراندينى دون أن يصلا إلى حل لهذا النزاع، وعندما عين الراهب فلوريو محققًا جديدًا أرسل إلى روما خصيصًا كى يحث البابا أونوريوس الرابع (١٢٨٠ ـ ١٢٨٧) على أن يصل إلى قرار بشأن هذا الموضوع المعلق، ولكن الأقدار شاءت أن يموت هذا البابا دون أن يتمكن من حل المشكلة، وبعد اعتلاء بونيفاس الثامن (١٢٩٤ ـ ١٣٠٣) الكرسى البابوى عام ١٢٩٤، قام آنذاك المحقق الراهب جويدو بزيارة دا فيسنزا بزيارة روما للحصول على حل لهذه المشكلة، غير أن الفريقين المتصارعين كانا متكافئين، وتدخل أزو العاشر حاكم فيرارا فى الأمر، عندما رأى أن الصراع قمين بأن يعكر صفو السلام فى هذه المدينة، وفى عام ١٣٠٠ شكل بونيفاس لجنة لإجراء تحقيق مفاده أن أرمانو مات مهرطقًا ومرتدًّا وأنه يجب استخراج عظامه لحرقها وتدمير المكان المقام فوق ضريحه والتخلص من كل التماثيل المصنوعة له من الكاتدرائية ومن جميع كنائس فيرارا فى غضون عشرة أيام، فضلًا على مصادرة كل ممتلكاته لصالح محاكم التفتيش وإلغاء أية عمليات بيع لهذه الأراضى التى قد تكون حدثت خلال الاثنين والثلاثين عامًا وهى فترة النزاع، وبهذا صار انتصار المحقق جويدا عظيمًا، وعندما خلت وظيفة أسقف فيرارا بموت شاغلها فى عام ١٣٠٣ تمت مكافأته بتعيينه فى المنصب الشاغر، وأيضًا حدثت واقعة مماثلة فى بريشيا، حيث عَبَد الشعب مهرطق متخف اسمه جويدو ولكن محاكم التفتيش التى أماطت اللثام عنه أمرت بإخراج عظامه من القبر وحرقها.

كان ذلك الوقت أوج قوة محاكم التفتيش وبأسها، وتدل إحدى الوثائق التى سطرها جويدو دا توسيس محقق روما جنولا عام ١٣٠٢ على مدى الدقة التى وصل إليها تنظيم هذه المحاكم، فقد نشر أسماء تسعة وثلاثين موظفًا وقع اختياره عليهم كى يساعدوه فى عمله الذى تطلب إنجازه توفير مبالغ طائلة من المال فى خزينة محاكم التفتيش ناجمة عن تحصيل الغرامات والمصادرات،

والجدير بالذكر أن الراهب دوناتو دا سانت أجاثا شغل وظيفة المحقق فى محكمة تفتيش روما جنولا، وقام مستشار ريمينى القانونى بتحديد القواعد التى ينبغى على محاكم التفتيش اتباعها، وتعتبر هذه القواعد أوضح منهاج عمل أوردته الوثائق والسجلات.

ورغم القسوة التى أظهرتها محاكم التفتيش نحو المهرطقين بوجه عام، فإن البابا أونوريوس الرابع عامل بعضًا منهم برأفة غير عادية فى فبراير ١٢٨٦؛ حيث إنه أراد أن يثيب شعب توسكانى لإخلاصه للكنيسة الرومانية إلى جانب وفائه له شخصيًّا قبل أن يشغل منصب الباباوية، فقد قام البابا بإعفاء أهل توسكانى كأفراد وجماعة وتبرئتهم من الهرطقة، بل إنه غض الطرف عن العقوبات التى سبق للإمبراطور فردريك الثانى فرضها عليهم، ورغم أن قانون محاكم التفتيش نص على معاقبة ورثة المهرطقين، فإن البابا أعفاهم من هذا العقاب، وطلب البابا من المهرطقين الموجودين فى توسكانى أن يسلموا أنفسهم للمحققين فى غضون فترة زمنية محددة للرجوع عن هرطقتهم ويقبلوا عقوبات التوبة المفروضة عليهم دون إذلالهم أو تعجيزهم أو تجريدهم من ممتلكاتهم، ورغم هذه الرأفة البادية فإن البابا رفض أن يتسامح مع المنتكسين أو المرتدين عن صحيح الدين، وأصدر مرسومًا يقضى بإلغاء دساتير فردريك الثانى وطلب من الحاكم رودولف هامسبرج تأكيد هذا الإلغاء ففعل، ويبدو أن توسكانى تمتعت بامتيازات لم تتمتع بها بقية المقاطعات الإيطالية، ومن ثم فقد استثنيت توسكانى من المعاملة القاسية التى لقيها المهرطقون فى الأماكن الأخرى، ويمكن الاستدلال على ذلك من موقف البابا نيكولاس الرابع من المهرطقين هناك، فقد حث المحققين فى كل من چنوه ولومباردى وروما جنولا وناپولى وصقلية على بذل قصارى جهدهم لقمع الهرطقة، غير أنه استثنى مقاطعة توسكانى، ولكن هذا الاستثناء على أية حال لم يستمر، فقد انتهى الأمر بإلغائه بدليل أن جيراردو من فلورنسا المتوفى قبل عام ١٢٥٠ قدم إلى المحاكمة فى ١٣١٣، ورغم أن أولاده وأحفاده كانوا كاثوليكيين صالحين فقد حرموا من وراثته.

وكذلك كان بابا روما يتدخل من وقت إلى آخر للتخفيف من قسوة القانون ومن غلواء المحققين وإفراطهم فى التحمس، وكان هذا يحدث فى الحالات التى يتمتع فيها المهرطقون بالجاه والثراء والسلطان، ويذكر لنا المؤرخون ثلاث حالات من هذا القبيل، حدثت فى عهد البابا المستبد بونيفاس الثامن، الذى أعلن فى عام ١٢٩٧ أن راينيريو جاتى أحد نبلاء فيتربو وأولاده قدموا إلى المحاكمة بناء على شهادات زور، ومن ثم حكم بإلغاء الأحكام الصادرة عليهم كما حكم بتبرئتهم جميعًا من وصمة الهرطقة، وفى عام ١٢٩٨ أمر البابا محاكم التفتيش بإعادة ممتلكات مهرطق كان الراهب المحقق أندريا قد حكم بمصادرتها، فضلًا على أنه أمر الراهب آدم كومبو بالامتناع عن

مضايقة مواطن من أودفيبو يدعى چيوفانى فيرالوكو سبق للمحقق أنجيلو دا أرييتى وليوناردوا دا تيفولى تبرئته من الهرطقة. ويبدو أن المحقق آدم أثار الذعر والفزع حتى فى قلوب الأبرياء، ففى ٨ مايو ١٢٩٣ نراه يرغم إنسانًا مهذبًا اسمه ماركاسوف فى بيز أراجون، تصادف وجوده فى روما، أن يعطيه ضمانة مالية ضخمة قدرها مائة مارك للسماح له مقابلها بفسحة من الوقت تصل إلى ثلاثة أشهر، يمثل بعدها أمام محكمة تفتيش كاركاسوف ويطيع أوامرها، وبناء عليه حضر أمام المحقق برتراند دى كليرمونت يوم ١٩ يونيه من العام المشار إليه، وبعد التحقيق معه بدقة وتمحيص أكثر من مرة لم يتمكن المحقق من إثبات تهمة الهرطقة عليه، وليس هناك دليل على أن المتهم البرىء استعاد الكفالة من الراهب آدم.

وبزيادة الدقة والإحكام فى تنظيم محاكم التفتيش فى شمال ووسط إيطاليا، اضطر المهرطقون إلى الفرار إلى سردينيا، ولكن هذه الجزيرة أضيفت عام ١٢٥٨ إلى محاكم التفتيش فى توسكانى التى أرسلت مبعوثيها إلى سردينيا لملاحقة المهرطقين الفارين.

الهرطقة فى **ناپولى**

وتعرضت مدينة ناپولى إلى عدوى الهرطقة شأنها فى ذلك شأن البلاد الواقعة فى جنوب أوروپا، وفى وقت باكر توغل مبشرون مهرطقون قادمون من بلغاريا فى مناطق جنوب جبال الألب، والجدير بالذكر أن ملوك نورمانديا كانوا على علاقة سيئة بالكرسى الباباوى فى روما، فلا غرو إذا رأيناهم يضعون العراقيل أمام عمل محاكم التفتيش فى البلاد الخاضعة لسيطرتهم، فضلًا على أن هذه السياسة المناوئة لمحاكم التفتيش وجدت تأييدًا كبيرًا لدى طبقة النبلاء والإقطاعيين، وتدل إشارات جوشيم من فلورا إلى الهرطقة الكاثارية على وجود المذاهب المهرطقة فى منطقة كالابريا، ولكن يبدو أن هذا الوجود الكاثارى فى المناطق الإيطالية الواقعة جنوب فلورنسا كان متفرقًا وغير منتظم. وفى عام ١٢٣٥ اجتاح الدهماء ديرًا للدومنيكان فى ناپولى واعتدوا على العديد من رهبانه وأصابوهم بجراح بالغة، وفسر البابا جريجورى التاسع اندلاع أعمال العنف والشغب بأنه من صنع أصدقاء المهرطقين.

وكما سبق أن ذكرنا أصدر الإمبراطور فردريك الثانى مراسيم تنص على ملاحقة المهرطقين واضطهادهم بكل عنف وضراوة، ولكنه لم يضع سياسته القمعية موضع التنفيذ الفعلى إلا لمامًا وبصورة متقطعة ومتفرقة، ويمكن القول إنه امتنع فى كثير من الأحوال عن التنكيل بالمهرطقين بسبب عداوته للكرسى الباباوى وارتياحه بل ترحيبه بالقوى المناوئة للبابا والرافضة لسلطانه الزمنى والروحى معًا.

وبعد طرد المهرطقين من منطقة لانجويدوك، توجهوا إلى إقليم لومباردى الإيطالى ولكنهم ما لبثوا أن بارحوه عقب استشعارهم الخطر هناك فاحتموا بوديان كالابريا وأبروزى.

ولم تدم سيطرة البابا إينوسنت الرابع على مملكة ناپولى طويلًا، الأمر الذى جعل قدرة الكنيسة على اضطهاد الهرطقة غير منظمة، وعندما تمكن مانفريد من استعادة هذه المملكة من قبضة البابا، اضطر تحت الضغوط المتزايدة عليه إلى التخلص من بعض المهرطقين، غير أن نشاطه فى مناهضة المارقين والمهرطقين توقف عند هذا الحد، كما أنه توقف عن اتخاذ أية إجراءات قمعية وعنيفة ضدهم.

وجاء الملك شارل أنجو على رأس حملة صليبية لنصرة الكنيسة، وبعد أن أحكم سيطرته على الهراطقة بتنفيذ حكم الإعدام فى كونرادين فى ٢٩ أكتوبر ١٢٦٨، اندفع بكل حماسه إلى إنشاء محاكم التفتيش فى كل أنحاء مملكته، وتدل مراسلات هذا الملك العديدة المؤرخة فى عام ١٢٦٩ على ما بذلته هذه المحاكم من نشاط كبير، وأظهر الملك حرصًا فائقًا على تزويد هذه المحاكم بكل ما تحتاج إليه من نفقات وموظفين فضلًا على تزويد كل محقق بخطاب يأمر كل قوات الدولة بطاعته. وهكذا دانت السلطة والقوة لمحاكم تفتيش ناپولى. وعين الملك محققًا واحدًا لمدينتى بارى وكابيتاناتا ومحققًا لأوترانتو ومحققًا آخر ليترادى لافورد وأبروزى، وفى عام ١٢٧١ عين محققًا لكالابريا وآخر لصقلية، واختار معظم المحققين من طائفة الرهبان الدومنيكان، كان من بينهم على أقل تقدير راهب فرنسيسكانى واحد هو بنيفنتو. ونظرًا لأن محاكم التفتيش فى هذه الأماكن كانت تفتقر إلى السجون، فقد وضع الملك كل السجون الملكية تحت أمرها وتصرفها. كما صدرت تعليمات إلى السَّجانين بتعذيب المسجونين وفقًا لطلبات المحققين. وظل هذا الوضع قائمًا على هذا النحو حتى أواخر عام ١٣٠٥.

ولم يقتصر حماس شارل أنجو على تنظيم محاكم التفتيش وزيادة كفاءتها، بل إنه أوحى بشن حملات ضد الهراطقة تحت رعايته، وواصل دعمه ومساندته لمحاكم التفتيش. ورغم وجود محقق فى أبروزى فإننا نراه فى ١٣ ديسمبر عام ١٢٦٩ يرسل إليها الفارس بيراردو دا راجاتا، ويعطيه التعليمات بفحص حالات الهرطقة بكل جد ونشاط ويأمر الموظفين المحليين بأن يكونوا رهن إشارته. وأيضًا ليس أدل على تحمسه للكنيسة من أنه فى عام ١٢٧٤ وهب طائفة الدومنيكان بناء كنيسة رائعة فى مدينة ناپولى هى كنيسة بطرس الشهيد، كما حث أشراف هذه المدينة ونبلاءها أن يحذوا حذوه فيغدقوا العطايا عليها. غير أن عقودًا انقضت دون قيام مبنى الكنيسة بسبب نضوب الموارد، الأمر الذى حفز الملك روبرت لمنحها خمسين أوقية ذهب تدفعها نيابة عنه محاكم التفتيش

من حصيلة الثلث المخصص للملك من مصادرات أموال وأملاك المهرطقين. ويدل هذا على مدى سيطرة المكتب المقدس فى ناپولى على حصيلة المصادرات.

ونحن لا نعرف سوى النزر اليسير عن محاكم التفتيش فى مملكة ناپولى. ولكننا نعرف أن الهرطقة استمرت هناك وأن منطقة ناپولى الجبلية ساعدت المهرطقين على الاختباء فيها، وفى أغسطس عام ١٢٦٩ تضمن أحد خطابات الملك شارل أنجو أمرًا بالقبض على ثمانية وستين مهرطقًا قام الراهب بنيفنتو بكشف النقاب عنهم، الأمر الذى يشير إلى شدة نشاط محاكم التفتيش فى ناپولى فى أداء عملها. ويتضمن خطاب ملكى آخر مؤرخ بتاريخ ١٤ مارس ١٢٧٠ إشارة إلى حرق ثلاثة مهرطقين آخرين فى بنيفنتو بناء على رأى الراهب ماثيو دى كاستيلامار. ومن ناحيتهم أسرع المحققون فى مقاطعة لانجويدوك فى عام ١٢٦٩ بإرسال مندوبين إلى ناپولى للحاق بالمهرطقين الفارين إلى هناك من قسوة محاكم تفتيش لانجويدوك. ومن الواضح أن نجاح سياسة الراهب بنيفنتو فى مطاردة المهرطقين يرجع إلى مساندة الملك شارل وأوامره بضرورة الخضوع لمحاكم التفتيش. ولكن مهما بلغت كفاءة محاكم التفتيش فى ناپولى فإنها تقل كثيرًا عن كفاءة مثيلاتها فى كل من لانجويدوك الفرنسية ولومباردى الإيطالية. فضلًا على أن المحققين فى ناپولى لم يتمتعوا بالسلطة الكافية حيث إنهم كانوا يرجعون إلى الملك شارل فى كل كبيرة وصغيرة. ومع ذلك فنحن نشاهد عام ١٣٠٥ الراهب توماس دى أفيرسا يبذل نشاطًا ملحوظًا فى تقديم طائفة الفرنسيسكان الروحانيين إلى المحاكمة، كما أن الملك روبرت أمر عام ١٣١١، بإيعاز من الراهب ماثيو، بأن يسكن اليهود المتحولون إلى المسيحية فى أماكن متفرقة حتى لا يختلطوا بالمسيحيين وحتى لا يغريهم أحد بالارتداد إلى الدين اليهودى.

ونستدل على وهن محاكم التفتيش فى مملكة ناپولى من هجرة المهرطقين الوالديسيانيين المنظمة والآمنة من بعض وديان جبال الألب إلى بعض مناطق هذه المملكة. فنحو عام ١٣١٥ قام أحد نبلاء ميلانو يدعى رانينو ديل بوجيو بالترحيب بأول فوج من المهرطقين من ساڤوى واعدًا إياهم بالأراضى والامتيازات. وذلك بعد أن تلقى المزمعون على الهجرة تقارير تدعو للاطمئنان من مندوبيهم الذين أرسلوهم إلى ناپولى للتعرف على ملاذها الآمن. وبوصول المهرطقين الوالديسيانيين إلى ملاذهم الآمن فى مملكة ناپولى استقرت مجموعاتهم فى مجموعة القرى التى أنشَؤُوها. وعندما تعرض المهرطقون الوالديسيانيين لمزيد من الاضطهاد والتنكيل على يدى فرانسوا بوريل، زادت هجرتهم الواسعة النطاق إلى مملكة ناپولى، حيث أصبحت أبوليا عاصمتهم ولم يكن من الممكن لهؤلاء المهاجرين أن يزدهروا فى بلاد المهجر الإيطالى لولا أن محكمة تفتيش ناپولى تقاعست فى أداء واجبها. ويتجلى لنا هذا التقاعس عام ١٣٢٦ عندما كان البابا چون الثانى والعشرون (١٣١٦ ـ

١٣٣٤) يلاحق بعض المهرطقين الفارين إلى كالابريا. فقد رأى هذا البابا أنه من الأنجع والأفضل ألا يلتجئ إلى المحققين فى طلب المساعدة بل إلى الملك روبرت ودوق كالابريا اللذين استنجد بهما للقبض على هؤلاء المهرطقين وتسليمهم إلى محاكم الكنيسة الأسقفية.

الهرطقة فى صقلية

وعندما آلت جزيرة صقلية فى عام ١٢٨٢ إلى الملك بيدرو الثالث من أراجون، اشتد العداء بينه وبين الكرسى البابوى. والواقع أن البابا مارتن الرابع (١٢٨١ ـ ١٢٨٥) عندما أمر عام ١٢٨٥ بشن حملة صليبية ضد بيدرو، رد أسباب هذه الحملة إلى تفشى الهرطقة فى جزيرة صقلية، وأن هذه الجزيرة منعت المحققين من دخولها. وفى عام ١٣٠٢ اضطر البابا بونيفاس الثامن إلى قبول هذا الوضع الشاذ كأمر واقع وإلى الاعتراف بفردريك من أراجون ملكًا على تريناكريا مقابل الاعتراف بمحاكم التفتيش والسماح لها بمزاولة نشاطها. ولهذا نجد أن البابا بنديكت الحادى عشر (١٣٠٣ ـ ١٣٠٤) يأمر عام ١٣٠٤ الملك فردريك بأن يحسن استقبال المحقق الراهب توماس دى أفرسا وجميع المحققين الآخرين الذين يبعث بهم إليه ويقدم لهم كل المساعدات الممكنة. ورغم ذلك فقد كان استقدام محاكم التفتيش إلى هناك شكلًا دون أى مضمون حقيقى باستثناء ملاحقة الهراطقة المعروفين باسم فرسان سليمان. فضلًا عن أن جزيرة صقلية ظلت لفترة طويلة ملجأ آمنًا للهراطقة المعروفين باسم تنظيم الإخوة. وليس من شك أن أرنالدو ميلانوفا أسهم فى خلق هذا الوضع حيث إنه أعطى الملك فردريك صورة بشعة عن محاكم التفتيش. وعندما قام رئيس أساقفة باليرمو بالقبض على أحد أفراد تنظيم الإخوة فى عام ١٣٢٨، التمس المقبوض عليه من الملك فردريك إطلاق سراحه، ولكن البابا يوحنا الثانى والعشرين (١٣١٦ ـ ١٣٣٤) كتب إلى رئيس أساقفة باليرمو يطلب منه المبادرة بإبادة تنظيم الإخوة ومستنكرًا ومنبهًا إلى عدم وجود أية محاكم تفتيش هناك.

الهرطقة والبندقية

وكانت جمهورية البندقية تطبق القانون الخاص بها. ولم تصبح البندقية قوة يعتد بها ويعمل لها حساب فى قلب شبه الجزيرة الإيطالية إلا بعد استيلائها على تريفيزو عام ١٣٣٩. فضلًا عن أنها استطاعت عام ١٤٤٨ انتزاع بيرجامو من حكام ميلانو. ومن ثم فإن السياسة التى انتهجتها البندقية إزاء محاكم التفتيش هى التى رسمت فى نهاية المطاف السياسة التى اتبعتها تريفيزو، وجزء كبير

من مقاطعة لومباردى، وقد استهدفت هذه السياسة دحض مزاعم الكرسى الباباوى وإجهاض تطلعاته، كما أنها تشككت فى نوايا البابا وتعلله للتدخل فى شؤون سيجفوريا الداخلية والخارجية. وبوجه عام كانت البندقية تستمسك بالمذهب الكاثوليكى الأصيل، كما أنها نأت بنفسها عن الصراع المحتدم بين حزب الجيلفيين وحزب الجيبليين اللذين سبق لنا الإشارة إليهما. وكذلك امتنعت البندقية عن التعبير عن رفضها للمتمرد أزيلين دا رومانو. ورغم أن البندقية كانت القاعدة التى انطلقت منها عمليات الحرب الصليبية ضد أزيلين، وأن مواطنًا من البندقية هو الذى قاد الحملة التى استولت على پادوا، فإن هذه الجمهورية لم تسرع فى الانخراط فى الحركة الرامية إلى استئصال الهرطقة والتى قام بتفعيلها بكل همة ونشاط البابا جريجورى التاسع والباباوات الذين جاؤوا من بعده.

والجدير بالذكر أن البندقية امتنعت عن إدخال قانون فردريك الثانى الخاص بمعاقبة الهرطقة بصراحة فى قانونها. ونحن نرى فى عام ١٢٢٩ أن القسم الرسمى المعتاد الذى أقسم عليه الحاكم دوج جياكومو تيبولى لا يشير مطلقًا إلى الهرطقة وقمعها، ولكنه يشير فقط إلى القانون الجنائى السائد آنذاك. ونفس الشىء ينطبق على القانون الجنائى الذى نشره الدوج السابق الذكر فى عام ١٢٣٢.

ولم تستجب البندقية إلى الضراوة التى نفثها البابا جريجورى التاسع فى محاكم التفتيش. ولكنها فى نهاية الأمر لم تستطع التهرب من اضطلاعها بمسؤوليتها فى معاقبة الهرطقة. ومع ذلك فقد أصرت السلطات المدنية فى جمهورية البندقية على حقها فى الاضطلاع بشؤون العدل فى الأمور الروحية والزمنية على حد سواء. وفى عام ١٢٤٩ تضمن القسم الذى أقسمه دوج مارينو موروسينى وعدًا بتعيين كاثوليك أفاضل، يتصفون بالاستقامة والكياسة للبحث عن الهراطقة، وتقرر حرق الهراطقة الذين يسلمهم إلى الذراع العلمانية (أى السلطة المدنية) رئيس أساقفة جرادو أو أساقفة جمهورية البندقية بناء على رأى مجلس جمهورية البندقية أو أغلبية أعضائه. ولهذا تم إنشاء محكمة تفتيش علمانية للبحث عن الهراطقة، واعترفت البندقية بصلاحية المحاكم الأسقفية القديمة وحدها، ولكنها أخضعت الأحكام الصادرة عن الأساقفة لمراجعة مجلس البندقية قبل الشروع فى توقيع عقوبة الموت على المهرطقين.

ولم يكن بابا روما راضيًا عن هذا الوضع. وأدت وفاة فردريك الثانى إلى محاولة توسيع نطاق محاكم التفتيش؛ بحيث تشمل البندقية وغيرها من البلدان الخالية من محاكم التفتيش. وفى ١١ يونيه عام ١٢٥١ أصدر البابا إينوسنت الرابع أمرًا إلى الراهبين فراتى فيسنزا من ميلانو، وچيوفانى من فيرسيلى بأن يذهبا إلى البندقية لتعقب المهرطقين هناك، وخولهما نفس صلاحيات المحققين فى محاكم التفتيش فى منطقة لومباردى. ولكن يبدو أن هذين الراهبين أخفقا فى ذلك. وهناك وثيقة

يرجع تاريخها إلى عام ١٢٥٦ تبين إعدام المهرطقين، كما تبين التساهل فى معاملتهم. ولكن هذا الإلغاء لعقوبة المهرطقين سرعان ما توقف، ونحن نرى چياكومو كونتارينى فى عام ١٢٧٥ يقسم قسمًا شبيهًا بقسم عام ١٢٤٩ الذى ينص على تنفيذ حكم الإعدام فى المهرطقين.

وعندما اشتدت وطأة محاكم التفتيش فى لومباردى وتريفزو على المهرطقين، فروا من الاضطهاد والتنكيل ووجدوا ملاذًا آمنًا فى جمهورية البندقية التى أظهرت قدرًا ملحوظًا من التساهل معهم. وعبثًا أرسل البابا أونوريوس الرابع نحو عام ١٢٨٦ الراهب فيليپو مانتوا المحقق بمحكمة تفتيش تريفيزو إلى جمهورية البندقية؛ كى يحفزها إلى اتباع القوانين الصارمة والمتشددة المناهضة للهرطقة نفسها التى استنها الإمبراطور فردريك والتى درج الباباوات على اتباعها. وأيضًا عبثًا حاول الباباوات أن يجعلوا البندقية تحذو حذو المدن الأخرى فى طاعتهم، فقد أصرت البندقية على شق عصا الطاعة، الأمر الذى جعل البابا نيكولاس الرابع فى عام ١٢٨٨ يضيق ذرعًا بعناد هذه الجمهورية المارقة. ولهذا أمر بضرورة اتباع القوانين الإمبراطورية والباباوية الخاصة بمعاملة المهرطقين. فضلًا على أنه أصدر تعليماته الباباوية إلى دوج البندقية (أى حاكمها) بتقديمه المساعدة إلى المحققين فى محكمة تفتيش تريفيزو.

وحتى تتمكن البندقية من الاستمرار فى رفضها تطبق القوانين الخاصة بالهرطقة لم يكن هناك مناص من أن تعلن استقلالها. وبطبيعة الحال ساعدها هذا الاستقلال على عدم اتباع قوانين الهرطقة التى استنها الإمبراطور فردريك والباباوات. ورغم ذلك فقد كلفت جمهورية البندقية فى ٤ أغسطس ١٢٨٩ الدوج چيوفانى داندولو بتقديم المساعدة إلى المحققين فى محاكم التفتيش عندما يطلبون منه ذلك. وأيضًا أصدرت جمهورية البندقية مرسومها بأيلولة كل الغرامات والمصادرات إلى خزينة الدولة بحيث تتولى الإنفاق منها على المكتب المقدس. علمًا بأن راتب المحقق السخى كان يصل آنذاك إلى اثنتى عشرة دوقة شهريًّا، إلى جانب تحمل الدولة نفقات القبض على المتهمين والصرف على السجون. وأدى هذا إلى تركيز السلطة فى يد دولة البندقية وحرمان المحققين من الاستئثار بها ومنعهم من ابتزاز المتهمين بالهرطقة، وكان هذا الوضع جديدًا على محاكم التفتيش، حيث إنها لم تعتد الخضوع لسلطان الدولة عليها. وقد شكا المحققان بوناجينوتا (من مانتوا) وچوليانو (من پادوا) من عدم تنفيذ القوانين الخاصة بالهرطقة، كما اشتكيا من أن الإشراف من قبل الدولة لا يسمح لمحاكم التفتيش باستخدام عدد كافٍ من المألوفين (الحراس) للكشف عن الهرطقة. وأيضًا اشتكيا من ذيوع الهرطقة وانتشارها فى جمهورية البندقية، الأمر الذى جعل البابا نيكولاس يلوم حاكمها لومًا شديدًا وطلب منه إزالة الشكوى على وجه السرعة، ولكن دون

طائل، حيث إن أشراف البندقية وأعيانها لم يروا من المناسب إلغاء وظيفة المحقق العلمانى التى نص عليها تشريع عام ١٢٤٩. وقد بلغ عدد المحققين العلمانيين ثلاثة. وأدى خلق وظيفة المحقق العلمانى إلى اصطدامه بالمحققين المعينين من قبل الكنيسة والبابا مما حفز الراهب أنتونيو محقق محكمة تفتيش تريفيزو عام ١٣٠١ إلى وضع حد لهذا التصادم وهذه الازدواجية الوظيفية، فأبلغ هؤلاء المحققين الثلاثة توماس فيادو، ومارينو زورزى، ولو زنزو سيجيكو بضرورة اعترافهم به رئيسًا عليهم، وعندما أبوا الخضوع له توجه الراهب أنتونيو إلى البندقية وأمر حاكمها الدوج جرادينجو بأن يقسم على طاعة القوانين الباباوية الخاصة بالهرطقة حتى لا يتعرض للطرد من الكنيسة. ولكن الدوج جرادينجو رفض فاضطر الراهب المحقق إلى سحب تهديده بعد أن فشل فى فرض رأيه على المحققين العلمانيين الثلاثة الذين استمروا فى عنادهم، كما استمروا فى أداء وظائفهم بل إنهم وسعوا دائرة عملهم.

وجرت العادة على اختيارهم من أعضاء مجلس الشيوخ، كما جرت العادة على أن يشاركوا محققى التفتيش اختصاصهم. وعندما توسعت البندقية فى الاستيلاء على بعض المدن فى قلب إيطاليا، اضطلع حكامها بأداء هذا العمل. وكان المحققون والأساقفة يطلبون اشتراك المحققين العلمانيين فى كل القضايا المرفوعة ضد المهرطقين.

وفى إيطاليا، كما هو الحال فى فرنسا، أخذت محاكم التفتيش فى الاضمحلال فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهما القرنان اللذان شاهدا مولد عصر النهضة فى أوروبا، ولعل الهرطقة الوحيدة التى ظلت تطل برأسها فى إيطاليا هى هرطقة تنظيم «الأخوة»، وعلى أية حال انخفض عدد المهرطقين الإيطاليين بشكل ملحوظ واتسموا بالفقر، الأمر الذى جعل محاكم التفتيش تفقد فائدتها وقدرتها على استثارة الخيال الشعبى، فضلًا على أن العائد المادى الذى حققته أصبح ضئيلًا للغاية.

والذى لا شك فيه على أية حال أن محاكم التفتيش الإيطالية نجحت فى استئصال شأفة الهرطقة الكاثارية بعد أن كان المهرطقون الكاثاريون فى النصف الأول من القرن الثالث عشر يزاحمون الكرسى الباباوى فى روما فى السيطرة على إيطاليا. واستطاعت هذه الهرطقة أن تحيا فى إيطاليا لفترة أطول من الفترة التى عاشتها فى فرنسا. فبعد طرد الكاثاريين من سهول لومباردى ووسط إيطاليا وجدوا ملاذًا آمنًا فى أماكن نائية يصعب الوصول إليها. فنحن نسمع فى عام ١٣٤٠ عن وجودهم فى جزيرة كورسيكا، حيث أرسل القائد الفرنسيسكانى جيرالد عددًا من رهبانه الذين نجحوا فى القضاء عليهم.

ولكن هذا القضاء لم يكن مبرمًا، حيث إن الهرطقة عادت لتطل برأسها مرة أخرى، ولهذا نجد فى عام ١٣٦٩ الرهبان الفرنسيسكان تحت إمرة الراهب مدندينو دا يولوينا وبدعم من البابا جريجورى الحادى عشر يتصدون بكل جوارحهم وحماستهم لمناهضتها. وفى عام ١٣٧٢ و١٣٧٣ كتب البابا جريجورى إلى أسقف مارانا وأسقف أجاكيو وإلى الراهب جابرييل دى مونتالكينو، يحفزهم على بذل المزيد من الجهد للتصدى لهذه الهرطقة، كما أنه خولهم حق توقيع عقوبة الإعدام على المنتكسين أو المرتدين. ولأن هؤلاء المهرطقين كانوا يختبئون فى الغابات والجبال فإن الوصول إليهم والإجهاز عليهم لم يكن سهلًا. وكذلك أرسل البابا فى عام ١٣٩٧ راهبًا يدعى فرانسيسكو إلى جزيرة كورسيكا لملاحقة المهرطقين الفارين هناك، مندوبًا باباويًّا ومحققًا فى محاكم التفتيش فى الوقت نفسه.

ورغم يقظة محاكم التفتيش الإيطالية، فقد استمرت الهرطقة الكاثارية فى بيدمونت، وفى عام ١٣٨٨ كان من حسن حظ الراهب أنتونيو سيكو سافيجليانو أن يتمكن من القبض على واحد من أكثر الطائفة الكاثارية نشاطًا ـ وهو رجل يدعى جياكومو بيتش ـ على مقربة من مدينة تورين. وقام جيرو لامو أماتى بطبع نص التقرير الذى تضمن تحقيقات المحقق وأسقف تورين معه. ويلقى هذا التقرير ضوءًا غامرًا على تفاصيل أحوال هذه الطائفة المهرطقة. وقد تعرض جياكومو بيتش للتعذيب المتكرر مما دفعه إلى الاعتراف. ونستدل فى هذا الاعتراف على كثرة عدد هذه الطائفة، وانضمام كثير من أبناء الطبقة الراقية إليها مثل عائلات باتريزى وبركونى وبيتينى ونادو وأسلاف بالبى وكافور. وكان هؤلاء الهراطقة الإيطاليون يعرفون باسم «الوالديسيانيين» رغم انضمام الكاثاريين القاطنين فى لومباردى إليهم. وكانت هذه الطائفة على اتصال بمركز قيادتها فى البوسنه. والجدير بالذكر أن جياكوما بيتش تحول إلى هذه الهرطقة عن طريق مبشر من سلافونيا. وكذلك ساهم فى هرطقته مهرطقان آخران هاجوسيرنيو دى بالبى، وبيرو باتريزى، وقد أعطاه هذا الأخير عشرة فلورينات وأرسله إلى البوسنه للتبحر من مذهبه المهرطق. ولكن ظروفه السيئة حالت دون ذلك واضطرته إلى العودة إلى بلاده. ومن الواضح أن الطائفة المهرطقة فى بلدة تشبيرى الإيطالية كانت على علاقة وثيقة ونشيطة بزعمائهم فى البوسنه. وفى عام ١٣٧٠ سقط جياكومو بيتش فى يدى المحقق الراهب توماس دا كاساتشو الذى أرغمه على الاعتراف، وأطلق سراحه بعد أن نبذ هرطقته كمكافأة على خيانته لزملائه.

وكذلك تكللت جهود أنتونيو بالنجاح عندما اكتشفت طائفة أخرى من المهرطقين الكاثاريين يسكنون الوديان الواقعة غرب وشمال تورين. وقد تزعمهم فى الهرطقة مارتينو ديل بريت. وفى

نوفمبر عام ١٣٨٧ استطاع الراهب أنتونيو أن يقبض فى جيجنيرل على شخص يشتبه فى هرطقته يدعى أنتونيو جالو سنا تظاهر بأنه من الرهبان الفرنسيسكان. وكانت محاكم التفتيش هناك تعتمد كثيرًا على مساندة السلطة العلمانية لها، ولكن حاكمها الكونت ساڤوى لم يكن متحمسًا لتأييدها. ومع ذلك استطاع الراهب أنتونيو أن يحمل جالو سنا على الاعتراف عن طريق التعذيب والتراجع عن أفكاره، فوعد المهرطق بإفشاء كل الأسرار إذا أطلق سراحه. وفى اليوم التالى أدلى الرجل باعترافاته المفصلة رغم استمرار حجزه، وفى ٢ ديسمبر من العام نفسه مثل الرجل أمام الكونت الحاكم بعد تحذيره من أن التأكيد على اعترافاته سوف يؤدى إلى إعدامه شنقًا، ولهذا أنكر هرطقته وظل محبوسًا فى السجن. وبعد مضى شهر قرر فى حضرة الكونت الحاكم والمحقق بأن اعترافه انتزع منه عنوة تحت وطأة التعذيب، ويبدو أن صراعًا نشب بين الدولة والكنيسة حول تقرير مصيره. وانتهى هذا الصراع بانتصار الكنيسة على الدولة لأننا نرى أسقف تورين ومحققًا فى محاكم التفتيش يقومان باستجوابه فى قلعة دروس بالقرب من تورين. وتبين من تكرار استجوابه أن فى جعبته كمية هائلة من المعلومات عن المهرطقين؛ نظرًا لأنه ظل فى الجماعة المهرطقة نحو خمسة وعشرين عامًا، وأنه عمل مبشرًا جوالًا لمدة خمسة عشر عامًا، كما أنه كان على علم بالجماعات العديدة المارقة التى تعيش بالقرب من تورين، غير أن أغلبية هذه الجماعات كانت تسكن فى وديان الألب بين بيجينرول وسوسا. وتشكلت هذه الجماعات المهرطقة من بسطاء الناس وفقراء الفلاحين والخدم وسائقى البغال وأصحاب الحانات وأصحاب الحرف، كما أن زعماءهم كانوا ينتمون إلى طبقتهم نفسها أو على أحسن تقدير إلى طبقة الكهنة والكتبة.

كان زعيم الهراطقة مارتينو ديل بريت يقتنى قطة ذات حجم كبير وصفها بأنها أفضل صديق له فى الحياة. وعقب أداء طقوسهم الدينية فى محرابهم كانوا يطفئون الأنوار ويستغرقون فى ممارسات جنسية فظيعة (راجع كتابى عن «الهرطقة») وبدا التناقض واضحًا فى أحوال جالو سنا بصدد بيانه للمذاهب الكاثارية المهرطقة، فهو على سبيل المثال يعترف بأنه قيل له إن انضمامه لجماعة المهرطقين سوف يضمن الخلاص مع أبيه الذى فى السماوات، ولكنه فى الوقت نفسه أنكر خلود الروح، قائلًا إنها تموت بموت الجسد، فضلًا على أنه أنكر وجود المطهر الذى يؤمن به الكاثوليك. والرأى عند هؤلاء المهرطقين أن الله الأب خلق السماء. ومع ذلك فإنهم عبدوا التنين الذى خلق العالم والذى حارب الله والملائكة وكتبت له السيادة على الأرض. وأضافوا أن المسيح ليس الله، ولكنه ابن يوسف النجار وأنه لا يستحق الإجلال والتبجيل. ونبذ جالو سنا هرطقته ـ شأنه فى ذلك شأن چياكومو ـ على يدى الراهب توماسو دا كاساتشو، وحيث إن كليهما كان منتكسًا فهما لا يستحقان الراحة. وفى ٥ سبتمبر ١٣٨٨ تم تسليمهما إلى الذراع العلمانية فى تورين الذى قام بحرقهما.

ورغم ما أظهرته الهرطقة الكاثارية من حيوية فإنها كانت تندثر بسرعة، فآخر إشارة لها غرب الأدرياتيك كانت فى عام ١٤٠٣.

الهرطقة الوالديسيانية

والجدير بالذكر أن الهرطقة الوالديسيانية فى إيطاليا استمرت فى الازدهار والانتعاش فى منطقة بيدمونت الجميلة، ولا شك أن امتناع محاكم التفتيش عن إظهار القسوة فى ناپولى شجع المهرطقين الوالديسيانيين على اتخاذ المستعمرات فى الجنوب الإيطالى مقرًّا رئيسيًّا لهم. ونحن نعلم فى عام ١٣٨٧ أن جماعة الوالديسيانيين فى بارج فى بيدمونت كانت تحت إمرة شخص من أبوليا. وبعد مضى قرن أصبح الجنوب الإيطالى قبلة المهرطقين فى عقر دارهم فى منطقة جبال الألب.

ونحن فى عام ١٢٩٢، نسمع عن اضطهاد المهرطقين فى فال بيروسا، ومرة أخرى نسمع فى عام ١٣١٢ عن حرق هراطقة فى الوديان بسبب إصرارهم على التمسك بهرطقتهم. كما أن البابا يوحنا الثانى عشر يصف كنيس المهرطقين الوالديسيانيين فى أسقفية تورين بأنها فى حالة انتعاش ملحوظ. ومن كثرة عدد المهرطقين أصبحوا لا يختبئون أو يخفون وجودهم بل يعقدون اجتماعاتهم علنًا، وكانت هذه الاجتماعات أحيانًا تضم ما لا يقل عن خمسمائة مهرطق. وعندما حاول محقق تورين الراهب چيوفانى ألبرتو أن يقمعهم تجرؤوا عليه وشهروا السلاح ضده. وفى الميدان العام فى أنجروجنا ذبحوا چوليلمو قسيس الأبرشية؛ لأنهم شكوا فى قيامه بجمع المعلومات عنهم، كما أنهم حاصروا ألبرتو نفسه فى القلعة التى احتمى بها، ولكنه استطاع أن يهرب بجلده من هذا الحصار، تاركًا البلاد وراءه مرتعًا خصبًا للمهرطقين. وظل پيير مارتينو المعروف أيضًا باسم چوليانو أو مارتينو باسترای يتزعم هذه الفئة المهرطقة لمدة عشرين عامًا. وأثناء تجوال هذا الزعيم فى مهمات دينية شاء حظه العاثر أن يقع فى يدى چين دى باديس محقق إقليم پروڤنس الذى أمره بابا روما بتسليم سجينه إلى الراهب ألبرتو؛ لأنه يستطيع انتزاع المعلومات منه عن رفاقه فى الهرطقة. وهى معلومات رأى البابا أنها تبرر استخدام التعذيب معهم. ولا شك أن الإمساك بهذا الزعيم المهرطق مكن الراهب ألبرتو من أن يضع يده على عدد كبير من المهرطقين فى المناطق النائية.

واستمر الاضطهاد فأصبحنا فى عام ١٣٥٤ نسمع عن الأمر الذى أصدره چياكونسير بيدمونت إلى أمراء وكونتات لويسرنا بسجن عدد من المهرطقين الوالديسيانيين الذين اكتشفوا حديثًا فى لوسيرنا والوديان القريبة منها. وصدر هذا الأمر بإيعاز من پيترو دى روميا المحقق فى محكمة تفتيش بيدمونت الذى دفع حياته ثمنًا لحماسه لمعارضة الهرطقة. فقد تعرض بعد ذلك بوقت قصير للذبح فى سوسا.

وفى عامى ١٣٦٣ و١٣٦٤ بذل البابا إيربان الخامس (١٣٦٢ ـ ١٣٧٠) محاولة أخرى لإخضاع الهراطقة لطاعته. وكلف الراهب چين ريتشارد من مارسيليا بالهجوم عليهم من جهة الغرب، على حين هاجمهم المحقق وأسقف تورين من جهة الشرق. وطلب من أماديو من ساڤوى أن يتعاون مع مسؤول پروڤنس الدينى، وانتهى هذا الهجوم المشترك إلى القبض على عدد من الأسرى وعقد عدد من المحاكمات للهراطقة. ولا شك أن هذا الهجوم المشترك دفع المهرطقين الوالديسيانيين إلى اليأس والإحباط، مما حفزهم على التمرد والاشتراك فى الثورة الجاكيرية التى اندلعت من ساڤوى عام ١٣٦٥. وهى الثورة التى أخمدها بدون رحمة ملك ناڤار وحاكم بارابانت.

وتميز البابا جريجورى الحادى عشر بحماسه الشديد فى محاربة الهرطقة، ففى عام ١٣٧٥ بذل جهودًا مضنية لقمع الهرطقة الوالديسيانية فى كل من پروڤنس ودو فينيه. وتوجه الراهب أنتونيو بافو مؤخرًا إلى منطقة بريكاراكس الموبوءة بالهرطقات، حيث ألقى عظاته ضد المهرطقين واستدعاهم إلى المحاكمة، فبادر نفر منهم بالاعتداء على حياته حيث قاموا بذبحه أثناء خروجه من الكنيسة. وكذلك لقى نفس المصير محقق آخر فى محاكم التفتيش هو پيترو دى رافيا أثناء وجوده فى دير تابع لطائفة الدومنيكان فى سوسا.. واستشاط البابا جريجورى غضبًا من هذه الاغتيالات، فحث شارل الخامس ملك فرنسا وأماديو السادس حاكم ساڤوى لتطهير بلادهم من الهرطقة التى تلطخها. وقد أصاب كل من نانسيو وأنتونيو أسقف ماسا وفرانسو بوريل المحقق فى محكمة تفتيش پروڤنس نجاحًا باهرًا فى التصدى للهرطقة، ليس فى وديان فرنسا وحدها بل خارج حدود هذه الوديان. وتعرض المهرطقون الوالديسيانيون فى فال دى سوسا لأكثر أنواع الاضطهاد ضراوة وقسوة. ففى ليلة من ليالى عيد الميلاد المجيد، شن بوريل هجومًا مسلحًا على تراجيلاتو وأعمل فى أهلها المهرطقين تقتيلًا حتى التُعساء الذين هربوا من القتل ماتوا من الجوع والبرد القارس.. وكان بينهم خمسون امرأة بأطفالهن الرضع على صدورهن.

لم ترهب لكن الاغتيالات التى تعرض لها الرهبان فى محاكم التفتيش رفاقهم الذين مضوا فى اتباع سياسة محاربة الهرطقة، مثل پيرو دى كاستلمونت، ودافينوا دى تيردونا ـ توماسو دا كتسوتشو، وميشيل جراسى الذين نذروا أنفسهم لقمع الهرطقة الوالديسيانية فى بيدمونت دون طائل، وتحت وطأة هجمات بوريل الشرسة على الهراطقة، اضطروا إلى الفرار من وديانهم والنزوع إلى بيدمونت التى غصت بهم. ويبدو أن أماديو السابع الذى خلف والده فى عام ١٣٨٣ لم يقدم إلى محاكم التفتيش أية مساعدة ذات قيمة فى حربها الضروس وغير المجدية لإخضاع المهرطقين الوالديسيانيين لسلطانها. ونستدل من شذرات الوثائق التى خلفها أنتونيو سيكو الساعى إلى

التصدى للهرطقة فى ربيع عام ١٣٨٧ على فشل سياسة بوريل فى الإفراط فى استخدام القسوة مع المهرطقين.

صحيح أن بوريل نجح فى القبض على إيزابيل فيريريا زوجة چيوفانى جابريل وهو واحد من الذين قتلوا أنتونيو بافو وتلذذ بتعذيبه، ورغم ذلك فشل فى إثبات التهمة ضدها. فضلًا على أنه قام بتعذيب عدد آخر من المشكوك فى هرطقتهم فارضًا عليهم عقوبة التوبة بلبس الصلبان؛ لأنه لم يكن لديه أية سجون، وانهالت عليه مئات الاتهامات والاستنكارات، الأمر الذى يدل على مدى اتساع نطاق الهرطقة آنذاك. ولكنه عجز عن معاقبة المهرطقين بأية صورة فعالة.

وكانت أولى حالات الهرطقة التى نظرها حالة لورنزو باندوريا الذى تخلى عن هرطقته ونبذها فى حضرة أنتونيو بافو الذى كان قد اعترف باستمراره فيها، وهى حالة تمثل انعكاسًا لا لبس فيه، ولهذا تم تسليمه فى ٣١ مارس إلى الذراع العلمانية، الذى أمر بمصادرة جميع أملاكه لصالح محاكم التفتيش، وبعد انقضاء نحو شهر صدرت تعليمات إلى الراهب أنتونيو بافوكى بأن يصدر أمره للمفوض أوجنتو برونو حاكم أوزاسكو حتى لا توقع على هذا المفوض غرامة قدرها مئات الماركات. وفى الوقت نفسه صدر الأمر إلى المسؤول عن خزينة أوزاسكو ـ تحت تهديد الطرد من الكنيسة ـ بالمثول أمام المحكمة ليقدم إليه حصرًا بجميع ممتلكات المتهم المدان، وبالنظر إلى أن لورنزو تم تسليمه إلى الذراع العلمانية، فقد كان من الطبيعى تنفيذ حكم الإعدام فيه، غير أن الموظفين المدنيين رفضوا تنفيذه. وأيضًا تجاهل هؤلاء الموظفون كثيرًا من التعليمات التى أصدرها الراهب أنتونيو. فعندما أمر أنتونيو حكام أوزاسكو بالقبض على ثلاثة هراطقة حتى لا يوقع هؤلاء الحكام غرامة قدرها مائة مارك لم يكترث أحد بأوامره. ثم اتسع نطاق التمرد على الكنيسة الكاثوليكية. ورغم أن المحققين استقبلوا هذا التمرد بالسخط فإن محاكم التفتيش امتنعت عن تعذيب المتمردين واكتفت بإطلاق سراحهم بكفالة. وقد اشمأز أنتونيو اشمئزازًا لا مزيد عليه من الواقعة التالية: ففى ٢٧ يونيه أورد فى عريضة الاتهام اسمى مهرطقين يدعيان چياكو دو سانزو، ومارجريت من سانجاتو اللذين تغيبا عن حضور المحاكمة. ولكن تم العثور عليهما والإمساك بهما فى ٦ أغسطس فى مدينة تورين، حيث كبلا بالأغلال لمدة خمسة عشر يومًا بعد أن حاولا الهرب من السجن، وكان من حسن حظ الراهب أنتونيو أنه تمكن من القبض عليهما، ونقلهما إلى قلعة أفيجليانا حيث بقيا لمدة عشرة أيام. ولكن قبض أنتونيو عليهما كان بدون طائل حيث إنه عجز عن حث محكمة التفتيش على تعذيبهما وبالتالى عن حملهما على الاعتراف. وقدم رجال القضاء فى أفيجليانا التماسًا إلى الكونت أماديو الذى أمر بالإفراج عنهما. وقد سجل الراهب أنتونيو فى أوراقه

عدم استعداد الموظفين لإطاعة أوامره. وحاول هذا الراهب أن يستثمر وجوده فى أفيجليانا بنشر الاستدعاء المعتاد الموجه إلى جمع الشعب للمثول أمامه للاعتراف بهرطقتهم إذا كانوا مذنبين، أو الاعتراف على المشتبه فى هرطقتهم من الأصحاب والجيران.

وانتظر الراهب أنتونيو لمدة تسعة أيام كاملة دون أن يظهر أمامه أحد ممن استدعاهم. فرحل عن أفيجليانا والحزن يعتصر قلبه بسبب تجاهل المهرطقين له، وما أكثرهم فى أفيجليانا والأماكن المجاورة مثل كواز وفالجيون. ووقعت الطامة الكبرى فى شهر ديسمبر عندما أصدر هذا الراهب استدعاء لكل الموظفين العاملين فى وادى نيروسا، وهو أحد الوديان التى انتشرت فيها الهرطقة الوالديسيانية، ذاكرًا فى أمر الاستدعاء أن هذه الوديان تعج بالمهرطقين الذين يجب عليهم المثول أمامه فى بيجنبيرول لتطهير أنفسهم ومجتمعاتهم من الأوشاب. غير أنهم لم يكترثوا بكلامه وبدلًا من الاستجابة له طلبوا من چيوفانى دى براندا مستشار بيدمونت وبعض رجال البلاط التدخل لصالحهم لدى الكونت أماديو نظير خمسمائة فلورين، وذلك نظير منع المحقق من زيارة وادى بيروسا وإسقاط التهم الموجهة لهم.

كان هذا فوق قدرة الراهب أنتونيو على التحمل. فنفض عن حذائه غبار بيجنرول التى غادرها محزونًا كاسف البال؛ حيث توجه بالقرب من تورين لتعقب المهرطقين الكاثاريين هناك. وبدأ الراهب بإدانة الموظفين فى وادى بيروسا وحكم عليهم بالطرد من الكنيسة وفرض عليهم عقوبات المروق، فجاءت النتيجة وبالًا عليه لأنه أثار بعقوباته غير المجدية وغير الفعالة سخط الكونت أماديو عليه، ولا يبدو أنه صادف نجاحًا فى الحصول لصالح محاكم التفتيش على مصادرة ممتلكات شعب براجيلاتو الذى أدانه فرانسوا بوريل محقق تفتيش بروميسال. وقد منح البابا كليمنت السابع (١٣٧٨ ـ ١٣٩٤) هذا المحقق امتيازًا خاصًا عندما سمح لصلاحياته بأن تشمل بعض وديان بيدمونت.

ورغم أن الراهب أنتونيو لم يجد غضاضة فى التخلى عن محاسبة المهرطقين وإسنادها إلى منافسيه من طائفة الفرنسيسكان، فإنه كان مصممًا على الاحتفاظ بممتلكاتهم إذا كان ذلك فى مقدوره. ونستدل مما تقدم على مدى العقبات التى اعترضت طريق محاكم التفتيش من ناحية وكذلك مدى عدم فاعلية تنكيل بوريل الشرس فى تخفيض حجم الهرطقة الوالديسيانية. وعلى أية حال قاست مدينة تراجيلاتو الأمرين عام ١٤٠٠ عندما شنت سوسا فى عيد الميلاد تقريبًا هجومًا مسلحًا وعاتيًا عليها، مما اضطر سكانها الذين تمكنوا من الهرب من الموت للاحتماء بها، ولكن عددًا كبيرًا من الناجين من الموت هلكوا بسبب قسوة الجو وفظاعته، وصدمت هذه القسوة البالغة

مشاعر البابا بونيفاس التاسع (١٣٨٩ ـ ١٤٠٤) الذى أمر المحقق المسؤول عنها بأن يخفف من غلوائه ومن الإفراط فى تحمسه فى المستقبل.

وفى فترة الانشقاق العظيم [عندما أصبح هناك أكثر من بابا للكاثوليك فى نفس الوقت] (راجع كتابى «الهرطقة فى الغرب») خفت حدة الاضطهاد. ومع ذلك فقد أصدر البابا فى عام ١٤١٦ مراسيم جديدة لمحاربة الهرطقة الوالديسيانية. رغم ضآلة المعلومات التاريخية الخاصة بهذه الفترة، فمن الواضح أن نشاط محاكم التفتيش كان متقطعًا. ويدل الالتماس الذى رفعه حكام لوسيرنا إلى دوج ساڤوى أن سكان الوادى انخرطوا فى تمرد واسع النطاق على محاكم التفتيش؛ بسبب إمعانها فى اضطهادهم والتنكيل بهم، ويرجع تاريخ هذا الالتماس إلى ما بعد عام ١٤١٧. ونحن نعرف أن الراهب الذى عمل مساعدًا للمحقق واسمه برتراندو بيرو فى الفترة من ١٤٤٠ إلى ١٤٥٠ أحرق فى غارة واحدة ـ شنها على مدينة كونى اثنين وعشرين مهرطقًا منتكسًا وقام بمصادرة أملاكهم، وقد وردت هذه المعلومات فى مذكرة رفعها شعب قرية بيرنيز المجاورة فى عام ١٤٥٧ إلى البابا كاليستوس الثالث (١٤٥٥ ـ ١٤٥٨)، حيث جاء أن الراهب برتراندو زار مدينتهم بمصاحبة الراهب لو دوفيكو واسونبسينو، وبدأ الرجلان فى تقديم المهرطقين إلى المحاكمة، ولكنهما ما لبثا أن توقفا عن المضى فى إجراءاتهما، الأمر الذى أثار استنكار الشعب واستبشاعه. وأمام تخاذلهما اضطر البابا فليكس الخامس (١٤٣٩ ـ ١٤٤٩) إلى إرسال رئيس دير سان پييرو من سافيجليان لاستكمال ما بدأه الراهبان المتخاذلان، ولكنه قام بتبرئة عدد لا بأس به من المتهمين، ثم عُين محقق آخر تولى فتح الملفات القديمة وتشديد النكير على المهرطقين الذين تم الإفراج عنهم. وطلب الشعب مؤخرًا من البابا أن يتوقف عن اتخاذ أية إجراءات جديدة لحين تعيين اثنين من المتبحرين فى اللاهوت المسيحى لمساعدة محكمة التفتيش فى اتخاذ القرار المناسب. وتدلنا هذه الواقعة على أن محاكم التفتيش لم تعد تبث الرعب والهلع فى نفوس الشعب. ويؤكد لنا هذا أن البابا كاليستوس استجاب لمطلب الشعب وأمر أسقف تورين والمحقق بأخذ رأى اثنين من المتفقهين فى شؤون الدين عند النظر فى حالات الهرطقة، فضلًا على أن هذه الحادثة تبين حرص الكنيسة الكاثوليكية على ملاحقة الهرطقة الوالديسيانية. وبينما تتلكأ هذه القضية فى خطوها البطىء، خاطب البابا نيكولاس الخامس عام ١٤٥٣ أساقفة تورين ونيس، كما طلب من المحقق چياكومو دى بيرونز سطرًا مكتوبًا يفيد بوجود أغلبية من المهرطقين تسكن فى وادى لوسيرنا وأن الكثيرين منهم انتكسوا (أى ارتدوا) مرارًا وتكرارًا. وبالنظر إلى عجز چياكومو عن هدايتهم إلى الدين الصحيح فإنه لجأ إلى فرض حظر دينى شامل على سكان الوادى الذين عبروا عن ندمهم على

ما اقترفوه من هرطقة وتوسلوا للسماح لهم بالعودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، الأمر الذى حدا بالبابا نيكولاس إلى رفع الحظر المفروض عليهم والعفو عن التائبين المنتكسين منهم وغير المنتكسين، وإعادة جميع الحقوق المدنية التى سقطت عنهم، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن استخدام أسلوب العنف والقسوة مع المهرطقين لم يعد مجديًا.

غير أن الدوقة يولند، ولية العهد فى ساڤوى، شنت فى عام ١٤٥٧ حرب إبادة أنكى وأشرس ضد المهرطقين، وتزامنت هذه الحرب الضروس مع الإجراءات التى اتخذتها محكمة تفتيش دوفينيه. وفى ٢٣ يناير ١٤٧٦ صدر مرسوم بوضع جميع المهرطقين فى المناطق الموبوءة بالهرطقة تحت تصرف محاكم التفتيش، وأشارت عريضة الاتهام إلى وجوب مثول المسؤول الدينى عن لوسيرنا فى ١٠ فبراير فى العام نفسه لتفسير مسلكه الذى يتلخص فى رفضه بإيعاز من المحقق أندريا دى أكوابنونت أن يعلن عدم السماح لأحد من المهرطقين المهتدين على يدى چياكومو دى بيرونزو بأن يعقد أية صفقات أو معاملات بيع تزيد قيمتها على فلورين واحد، وأن كل صفقات البيع التى قاموا بها أصبحت لاغية حيث إنهم كانوا يحاولون الهجرة من البلاد، كما يحاولون بيع ممتلكاتهم قبل هجرتهم رغم أنها مصادرة بحكم القانون. ولكن لويس الحادى عشر ملك فرنسا تدخل لحماية هؤلاء المهرطقين بعد أن مارس ضغوطًا مكثفة على الدوقة يولند المتحمسة لاستئصال شأفة الهرطقة، واستشاط بابا روما غضبًا عندما علم بحماية الملك لويس الحادى عشر للمهرطقين، فأرسل مندوبًا باباويًّا على وجه السرعة لتنفيذ بنود المرسوم الباباوى، كما أنه ألح على الملك لويس بأن يتراجع عن سياسته، وأن يعمل فى السر على استرداد خطابات الحماية التى أرسلها إلى المهرطقين. فضلًا على أن البابا أمر أسقف تورين بأن يقابل الملك لويس شخصيًّا للتفاهم معه وأن يبذل قصارى جهده للقضاء على المهرطقين، الذين بلغوا من الصفاقة مبلغًا جعلهم يبشرون بهرطقتهم علنًا، ومن سوء حظ الهراطقة الوالديسيانيين أن الملك لويس مات عام ١٤٣٨ حيث إن موته تركهم بلا غطاء أو حماية، الأمر الذى شجع الكنيسة الكاثوليكية على استئناف أسلوب القمع والتنكيل معهم.

حملة ١٤٨٨ الصليبية على الوالديسيانيين

ولكن المهرطقين الوالديسيانيين لم يستسلموا للاضطهاد بل عادوا إلى تحديه والتصدى له من جديد. ويتبين لنا هذا من الأمر الذى أصدره الدوق كارلو الأول عام ١٤٨٤ للاستقصاء عن أعمال العنف والشغب التى ارتكبها شعب أجروجنا وميلارو وبوبيو احتجاجًا على سعى حكامهم إلى

القضاء عليهم وعلى هرطقتهم، وتمكن المحققون من التحرك بدون رحمة أو هوادة ضد المهرطقين المتناثرين فى مدن بيدمونت. ولكن المهرطقين الذين عاشوا فى الجبال تمتعوا بالأمان حتى داهمتهم قوات مقاتلة ساحقة. ويخبرنا البابا إينوسنت الثامن فى أبريل عام ١٤٨٧ أن المحقق العام الراهب بلاسيو دى مونريال، ذهب إلى بؤرة الهرطقة وحاول دون جدوى إقناع المهرطقين بنبذ ضلالهم، ولكنهم استقبلوا ملامته بالزراية والتحدى، واستمروا فى التبشير بهرطقتهم واكتساب أنصار جدد، بل إنهم داهموا منزله وذبحوا حارسه ونهبوا ممتلكاته، وأمام هذا الوضع المهين للكنيسة ومحاكم التفتيش، تعين على البابا أن يبذل جهدًا أكبر للتصدى للهرطقة، فعين رئيس شماسته كريمونا ألبرتو دى كابيتانى مفوضًا له ومندوبًا عنه فى كل من بيدمونت ودوفينيه، وأعطاه تعليمات بإرغام الشعب على حسن استقبال الراهب بلاسيو والسماح له بأداء واجباته ومهامه الوظيفية وأن يسحق المهرطقين سحقًا مبرمًا. وحتى يتمكن الراهب ألبرتو من النجاح فى عمله خوله البابا إصدار صكوك غفران للمهرطقين التائبين وأن يجرد من وظيفته ـ سواء كانت مدنية أو كهنوتية ـ كل من تسول له نفسه أن يشق عصا الطاعة عليه. وفى الفترة من فبراير ١٤٨٨ حتى مايو من العام نفسه وجه إلى المهرطقين عرائض اتهام، ولكنهم مضوا فى تحديهم، فقام بتسليمهم عن بكرة أبيهم إلى الذراع العلمانية لإنزال العقاب بهم. وفى الوقت نفسه أقدمت فرنسا وبيدمونت على شن حملة صليبية قوامها ثمانية عشر ألف مقاتل، زحفوا على المهرطقين من كل اتجاه للحيلولة بينهم وبين الهرب. وانتهى الأمر بمجزرة تعرض لها المهرطقون فى وادى لويز، ولكن وادى أنجزوجنا كان أوفر حظًّا؛ حيث إن الجيش الذى هاجم الهراطقة منى بالهزيمة النكراء. وكان الانتصار الذى حققه المهرطقون الوالديسيانيون بمثابة مهلة مكنتهم من التقاط أنفاسهم. وفى عام ١٤٩٠ دعاهم كارلو الأول إلى حضور مؤتمر منعقد فى بيجنيرول، أعطاهم السلام وأكد الامتيازات الممنوحة لهم.

وفى عام ١٤٩٨ قام لوكاس براج، وتوماس جيرمانوس المبعوثان من بلاد بوهيميا بزيارة الهراطقة الذين بعثوا عن طريقهما برسالة إلى ملك بوهيميا لاديسلاس وطبقة النبلاء عبروا فيها عن افتخارهم لامتناعهم عن الصلاة فى كنائس الكاثوليك، وهاجموا بشدة مباذل رجال هذه الكنائس. واتضح من المقدمة التى أظهرها هؤلاء المهرطقون أن الاضطهاد لم يكسر شوكتهم وأن روحهم المعنوية ما زالت مرتفعة، ويتجلى لنا هذا من مسلك المهرطقين الوالديسيانيين الساكنين فى وادى بو، وهو واد كانت كل قراه تعج بالمهرطقين، ووضعت مارجريت دى فوا حاكمة سالوكيس قواتها المقاتلة تحت إمرة المحقق أنجلو ريكياردينو. وشنت هذه القوات غاراتها على قرى براخيليلم وبيتو نيتو وأوتسينو، فاضطر معظم سكانها إلى الالتجاء إلى لوسيرنا، ولكن القوات المغيرة تمكنت

من إلقاء القبض على عدد منهم. وفى ٢٤ مارس ١٥١٠ صدرت أحكام بحرق خمسة منهم. غير أن هبوب عاصفة ثلجية عطل تنفيذ هذه الأحكام، الأمر الذى مكنهم من الهروب أثناء الليل والانضمام إلى رفاقهم، وكان المحقق أشد ما يكون حرصًا على تنفيذ الحرق بأية طريقة، فأتى بثلاثة مساجين آخرين كان قد وعدهم بالعفو عنهم بسبب ما أدلوا به من اعترافات مستفيضة، وقام بحرقهم نيابة عن المذنبين الفارين. وأيضًا قام هذا المحقق بمصادرة محتويات القرى التى نزح عنها المهرطقون وإعطائها إلى الكاثوليك الطيبين. ولكن المهرطقين الفارين لم يتركوا الكاثوليك فى راحة أو أمان، فقد شنوا من آن لآخر هجمات على الكاثوليك، وذبحوهم وأخذوا منهم المغانم والأسلاب لدرجة أن هؤلاء الكاثوليك فضلوا الرحيل منها. وأخيرًا سلمت الحاكمة مارجريت دى فوا بالأمر الواقع، فسمحت فى عام ١٥١٢ للمهرطقين المهاجرين بأن يعودوا إلى ديارهم ويعيشوا فى أمن وسلام مقابل مبلغ كبير من المال. ولكن هذه السماحة لم يكن لها وجود فى ساڤوى؛ حيث نصت القوانين الصادرة عام ١٥١٣ على ضرورة قمع الهرطقة وضرورة تقديم الموظفين العموميين كل عون ممكن إلى محاكم التفتيش التى تتقاضى نفقاتها من حصيلة المصادرات، وظل اضطهاد الوالديسيانيين مستعرًا إلى وقت دخولهم فى عام ١٥٣٠ فى مفاوضات مع طائفة البروتستانت فى سويسرا أدت إلى اندماجهم فى طائفة الكالڤينيين المتشددين.

هذه الهجمات المستمرة على الوالديسيانيين، أدت إلى هجرتهم على نطاق واسع إلى كل من كالابريا وأبوليا اللذين بقيا ملاذًا آمنًا للمهرطقين نحو قرنين من الزمان. وأيضًا نزح عدد كبير من سكان فرسينير ليستقروا فى وادى فولتورادا، وكذلك كادت محاكم التفتيش أن تندثر فى ناپولى خلال القرن الخامس عشر. ومما ساعد على التعامل مع الهرطقة بسماحة أن المهرطقين اتبعوا أسلوب المداراة. فأكثروا من حضور القداديس وسمحوا للقساوسة بتعميد أبنائهم. والأهم من هذا كله أن المهرطقين قاموا بدفع العشور الواجبة عليهم بانتظام عظيم. وعقد المهرطقون اتفاقات رسمية مع النبلاء من أجل توفير الحماية لهم مقابل الانتظام فى دفع الضرائب المفروضة عليهم. وعندما ضعفت قبضة هؤلاء النبلاء، وآلت مقاليد السلطة إلى عائلة أراجون، سعى الهراطقة عام ١٤٩٧ إلى الحصول من الإمبراطور فردريك على تأكيد من جانبه على استمرار الاتفاقات التى سبق أن أبرموها مع النبلاء وبذلك ضمنوا استمرار التسامح معهم. وكان كهنتهم يزورونهم مرة كل سنتين لتقوية معتقداتهم المهرطقة ومؤازرتها قبل أن يقفلوا راجعين إلى البندقية. وكان هؤلاء القساوسة الرحالة يلتقون فى كل مكان بأصدقائهم وزملائهم فى الهرطقة الذين يتعرفون عليهم عن طريق كلمة السر. ورغم يقظة الكنيسة الكاثوليكية، فقد انتشرت فى كل أنحاء إيطاليا شبكة من المهرطقين تعمل تحت الأرض وتتظاهر بالإيمان بالمذهب الكاثوليكى. وفى عام ١٤٩٧، وفى

روما نفسها وجد أخوان مهرطقان قادمان من بوهيميا، هما لوكاس وتوماس، زميلًا لهما فى الهرطقة فأنحيا عليه باللائمة الشديدة لأنه يخفى هرطقته عن الأنظار. ويقدر عدد المهرطقين فى كالابريا عام ١٥٣٠ بعشرة آلاف شخص وفى البندقية بستة آلاف شخص. ويستدل الدارسون فى انتشار الهرطقة على مقدار الضعف الذى أصاب محاكم التفتيش والوهن الذى اعترى موظفيها.

وامتد ضعف محاكم التفتيش فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلى كثير من مقاطعات إيطاليا. ولكن هذا الضعف كان بدرجات متفاوتة. ففى إقليمى ساڤوى ولومبارديا ظلت محاكم التفتيش تحتفظ بقدر كبير من نشاطها وقدرتها على الإرهاب والتخويف. وعلى أية حال فمن المؤكد أن المهرطقين قاوموا الاضطهاد بكل ما أوتوا من قوة. فضلًا على احتجاجهم الشديد على قوة هذا الاضطهاد. وعلى سبيل المثال طلب القسيس لوتشينو فيسكونتى من البابا كليمنت السادس إجراء تحقيق بشأن تجاوزات المحققين ضد المهرطقين فاستجاب البابا لطلبه. وأدت ضراوة الاضطهاد إلى تمرد المهرطقين الذين أجهزوا على بعض المحققين الظلمة، ورغم ذلك فإن قوانين مدينة ميلانو فى الفترة من ١٣٤٣ إلى ١٤٩٥ لا تشير بالمرة إلى محاكم التفتيش أو معاقبة الهرطقة. ولكن إحدى وثائق هذه المدينة تشير إلى مرسوم صادر عام ١٣٨٨ بأمر السلطة المدنية بأن تضع كل إمكانياتها تحت تصرف محاكم التفتيش، فضلًا على أنه ينص على تنفيذ أوامر البابا كليمنت بضرورة استخدام التعذيب والحبس لفترات طويلة مع المهرطقين. كما أن هذا المرسوم ينهى عن ابتزاز المحققين لأموال المهرطقين وعن استغلال سلطتهم. وحتى نتبين عجز المكتب المقدس عن عقاب المهرطقين، نذكر أن راهبًا فرنسيسكانيًّا اسمه أوبرتينو دى كالرليون ـ عين فيما بعد أسقفًا على ليبارى ـ تعرض للاتهام بالهرطقة نحو عام ١٣٦٠ من قبل محكمة تفتيش بياسترا، فأعلن الرجل أن السبب الحقيقى فى اتهامه بالهرطقة يرجع إلى انتمائه إلى حزب الجيبلين السياسى الذى سبق أن أشرنا إليه. واستطاع الرجل إثارة حفيظة سكان المدينة ضد محاكم التفتيش، وانتهز هذه الفرصة السانحة للهرب.

ورغم اضمحلال سلطة المحققين، فقد استمرت الكنيسة فى تعيينهم بانتظام لتأدية واجبات وظائفهم بقدر المستطاع. وتبين لنا هذا من قيام البابا مارتن الخامس (١٤١٧ ـ ١٤٣١) فى عام ١٤١٧ بتعيين راهب فرنسيسكانى يدعى چيوفانى دى كايبسترانوا فى وظيفة محقق خاص مهمته ملاحقة المهرطقين فى مانتوا. ورغم انكسار شوكة هذه المحاكم لم تر الكنيسة بدًّا من تعيين محققين أكفاء ومخلصين مثل كايبسترانو وصديقه جياكومو وبلا ماركا. وبعد أن حلت محاكم التفتيش محل المحاكم الدينية العادية حتى تتمكن من محاربة الهرطقة بأقصى درجة من الكفاءة أصبح هذان النوعان من المحاكم بدون جدوى أو فائدة. وأمام اضمحلال سلطة محاكم التفتيش، حاولت

الكنيسة الكاثوليكية أن تنقذ كل ما يمكن إنقاذه. ففى عام ١٤٥٧، انتشرت هرطقة جديدة فى كل من بريسيكيا وبيرجامو، وذاع بين رجال الكنيسة والعلمانيين على حد سواء أمر البابا كاليستوس الثالث مندوبه الدينى فى تلك المنطقة برناردو ديل بوسكو بالقبض على المهرطقين ومحاكمتهم مخولًا إياه سلطات أوسع من السلطات المخولة للمحققين، بأن أعطاه الحق فى إصدار الأحكام بصفة نهائية، وتنفيذها بدون نقض أو إبرام تاركًا له حرية استشارة أو عدم استشارة المحققين ورجال الكنيسة.

وعند تقديم زانينو دا سولسيا إلى المحاكمة بعد مضى عامين، تم استجوابه فى حضرة الراعى العام للكنيسة برناردو ديل جوسكو، فى حين أن الذى قام بإصدار الحكم عليه هو الراهب چاكوبو دا بريسكيا. وأرسل الحكم إلى البابا پيوس الثانى (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤) للتصديق عليه، فقام بإدخال بعض التعديلات عليه. ومما يدل على فقدان محاكم التفتيش لسطوتها أن الناس فى عام ١٤٥٩ أخذوا يتشككون علنًا وصراحة فى قيمة وصلاحية المراسيم التى أصدرها كل من البابا إينوسنت الرابع وألكسندر الرابع، والتى تعطى المحققين الحق فى شن حملات صليبية ضد المهرطقين ومقاضاة كل من يعطل أعمالهم باعتباره مهرطقًا، وبسبب استهانة الناس بهذه المراسيم، اضطر البابا كالستوس الثالث إلى تجديد هذا التخويل.

وتدل الحادثة التالية على مقدار استهانة إقليم لومباردى بمحاكم التفتيش. ففى ميلانو نحو عام ١٤٤٠، اتهم المحققون بالهرطقة عالمًا فى الرياضيات يدعى أماديو دى لاندى. وكان من سوء حظ هذا العالم أن عددًا من الرهبان ـ منهم القديس برناردينو فى سيينا ـ رموه بالهرطقة فى الوقت نفسه الذى قدم فيه إلى المحاكمة. والغريب أن محكمة التفتيش برأت هذا المهرطق من التهمة الموجهة إليه. ولكن حكم التبرئة الذى أصدرته محاكم التفتيش فقد فاعليته بسبب حكم الإدانة الذى أصدره ضده الراهب برناردينو، وناشد المتهم أماديو البابا أيوجينوس الرابع (١٤٣١ ـ ١٤٤٧) أن يتدخل فى الأمر، فقام هذا البابا بإحالة الموضوع إلى چيوسيب دى بريبو الذى استدعى شانئى المتهم ولكنهم تغيبوا عن الحضور، فحكم دى بريبو على برناردينو بسحب اتهاماته ضد عالم الرياضيات علنًا حتى لا تعاقبه الكنيسة بالطرد، ولكن برناردينو لم يحفل بهذا التهديد. والجدير بالذكر أن هذا الرجل نصب قديسًا، وقد كان أنصار برناردينو يتمتعون بالنفوذ مما جعل هجوم أماديو وغيره عليه فاشلًا. وفى عام ١٤٤٧ تمكن أنصاره من إقناع البابا نيكولاس الخامس بإصدار مرسوم ألغى فيه كل الإجراءات القضائية التى اتخذها جيوسيب ضد برناردينو وأمر بتدمير كل الوثائق التى تسجل هذه الإجراءات، وأخرس لسان المتهم أماديو، وأعلن أن برناردينو رجل تقوى وإصلاح ناهيًا الكتبة والرهبان عن محاولة الإساءة إليه.

ظل المكتب المقدس يعين محققين فى الوظائف الشاغرة، وأيضًا ظل إقليم لومباردى يواصل سياسة تعيين المحققين فى كل مدينة تحتوى على محكمة تفتيش بناء على ترشيح المسؤول الدينى المحلى فى دير الدومنيكان وذلك بالاتفاق مع زملائه. وفى عام ١٥٠٠ حدث تعديل يعطى بمقتضاه الراعى العام لكنيسة لومباردى حق قبول أو رفض الترشيح.

وفى مدينة البندقية لم تنج محاكم التفتيش كما رأينا من تدخل الدولة وإشرافها. ونستدل على تدخل الدولة فى شؤون هذه المحاكم مما حدث فى عام ١٣٥٦، عندما قام الراهب ميشيل دايزا محقق تريفيزو بممارسة اختصاصه بسجن بعض اليهود الذين اعتنقوا المسيحية ثم ارتدوا عنها. ولكن السلطة المدنية أو العلمانية، تدخلت ومنعت مضى هذا المحقق فى إجراءاته ضد المساجين وألقت القبض على حراسه، وقامت بتعذيبهم بتهمة نهب أملاك المتهمين، وأثار هذا التدخل غضب البابا إينوسنت السادس. ولكن جمهورية البندقية لم تأبه لغضبه. وتنم المراسلات التى بعث بها الراهب ميشيل على أنها لم تكن المرة الأولى التى تدخلت السلطة المدنية فيها فى شؤونه. ففى ١٧ أبريل ١٤١٢ أصدر المجمع العظيم إليه أمرًا بوضع حد للقداديس التى كان قسيس يونانى يقيمها ويجتذب بها جماهير غفيرة، ثم يقوم بنفيه من البلاد. ولكنه تم إلغاء أمر النفى بعد انقضاء شهر، الأمر الذى يشير إلى ضعف المحققين وهوان شأنهم آنذاك. وفى عام ١٤٢٢ عين مجلس يسمى مجلس العشرة لجنة للتحقيق مع بعض الرهبان الفرنسيسكان المتهمين بتقديم الأضحيات للشياطين. وأرسلت هذه اللجنة بعد شهر إلى البابا مارتن الخامس تطلب منه تخويلها سلطة البت فى هذا الموضوع؛ لأن هؤلاء الرهبان الفرنسيسكان الجوالة يتمتعون بحصانة تحميهم من المساءلة. وفى العام التالى (١٤٢٣) سحب مجلس الشيوخ الإعانة المالية التى كانت الدولة تقدمها لتغطية نفقات محاكم التفتيش. ويرجع الدافع لسحبها إلى الإحساس بعدم جدواها. ومن دلائل اضمحلال نفوذ محاكم التفتيش أن الراهب لوقا كيونى أراد فى عام ١٤٣٤ مقاضاة روجيرى دا برتونا بتهمة الهرطقة، فوجد نفسه مضطرًا إلى الالتجاء إلى البابا أيوجنيوس الرابع طالبًا منه أن يأمر أسقف البندقية بتقديم المساعدة له. ويتضح لنا عدم جدوى محاكم التفتيش من القضاء على الهرطقة من إرسال الراهب چيوفانى دى كابيستراتو إلى البندقية عام ١٤٣٧ للتحقيق مع بعض الرهبان الچيزويت المتهمين بالهرطقة، فإذا به يبرئ ساحتهم بدلًا من إدانتهم.

وفى عام ١٤٥٠ قرر مجلس العشرة تحديد عدد الحراس الذين يستخدمهم المحقق بأربعة. وفى العام التالى (١٤٥١) قرر هذا المجلس زيادة عددهم إلى اثنى عشر حارسًا، ولكنه فى ذلك الوقت أصدر تعليمات إلى الشرطة كى تراقب تصرفات الحراس وتتأكد من أنهم لا يتجاوزون واجباتهم

الوظيفية، الأمر الذى يدل على خضوع محاكم التفتيش لإشراف الدولة. ومع ذلك فقد استمرت الكنيسة الكاثوليكية فى سياسة تعيين المحققين.

وفى مانتوا نسمع عام ١٤٩٤ عن محقق لم يجد فى منطقته مهرطقين يضطهدهم، فأخذ يهاجم محلات الرهونات والربا التى كان اليهود يمتلكونها.

ويعتبر الراهب برناردينو دا فيلتر ـ وهو راهب فرنسيسكانى شهير فى زمانه ـ واحدًا من أبرز الرهبان الذين نذروا حياتهم لمحاربة بيوت الربا والرهونات فى المدن الإيطالية.

وفى إقليم توسكانى تصاعدت حدة التمرد والتذمر ضد محاكم التفتيش فى مدينة سيينا عام ١٣٤٠ بهدف الحد من تجاوزاتها. وشكا الراهب المحقق سيمون فيليبو من هذا العصيان إلى البابا بنديكت الثانى عشر الذى أمر بإلغاء هذه التجاوزات.

ويحتفظ لنا التاريخ بسلسلة الأحداث الواقعة فى فلورنسا التى تلقى الضوء على طبيعة العلاقة بين الشعب والمكتب المقدس. والجدير بالذكر أن الكنيسة الكاثوليكية نجحت فى محق الهرطقة هناك. ويؤكد الراهب چيوردانو داريفالتو استئصال شأفة الهرطقة فى فلورنسا مما اضطر فلول المهرطقين إلى الاختباء. وهذا ما يؤكده فيلانى الذى يخبرنا فى منتصف القرن الرابع عشر أن فلورنسا أصبحت خالية من المهرطقين، وتشرذم المهرطقون الوالديسيانيون وأعضاء منظمة الأخوة. وكان وجودهم المبعثر والنادر، عذرًا تعلل به المحققون لاستمرارهم فى وظائفهم. وفى عام ١٣٣٧، قام المفوض الباباوى برتراند رئيس أساقفة إمبرون بإلغاء الأمر والتقريع الشديد على المسؤول الدينى فى المكتب المقدس؛ بسبب مغالاته فى تعيين عدد كبير من المساعدين الذين يلتحقون بخدمة المحققين، وأمره بأن يكتفى فى المستقبل بتعيين أربعة مستشارين وكاتبين وسجانين واثنى عشر حارسًا. ومن الواضح أن هذا العدد كبير ويتطلب نفقات باهظة. ولأن الهراطقة فى تلك المنطقة كانوا فقراء، ولأنهم كانوا لا يملكون شيئًا ذا بال يمكن مصادرته والصرف منه على محاكم التفتيش، فقد لجأت هذه المحاكم إلى اتهام الأبرياء بالهرطقة حتى يمكن مصادرة أموالهم والاستفادة منها.

أموال البابا أو الحرمان

لقد أنهكت الحرب ضد المهرطقين فى منطقة لومباردى الخزانة العامة، فضلًا على أنها تسببت فى إفلاس المجتمع اللومباردى بأسره. وبات الخراب يحيق بسكان فلورنسا. وأغلقت بيوت المال أبوابها، وعجزت شركة أكياجوتى عن رد ما عليها من ديون. وفى عام ١٣٤٣ كان لكاردينال سانتا

سابينا دين على هذه الشركة، ولكنها عجزت عن الوفاء به. وكان المال فى واقع الأمر مال البابا. وفى التاسع من أكتوبر من ذلك العام، كتب البابا يطالب بمستحقاته لدى الشركة التى استحال عليها رد المبلغ. عندئذ أصدر محاسبو البابا حكمًا بضرورة الوفاء به. وخول البابا للمحقق سلطة تنفيذ الحكم الصادر والاستعانة بالذراع العلمانية أو السلطة المدنية، بل خوله الحق فى فرض الحظر الكنسى على المدينة بأسرها وليس مجرد الشركة المدنية. وطال النزاع فى هذا الشأن حتى ٢٣ نوفمبر ١٣٤٥، عندما استدعى الراهب پييرو المسؤولين للزج بالمديونين فى السجن إلى أن يوفوا بالدين الذى عليهم وإلا تعرضوا للطرد من الكنيسة.

ورغم أن المديونين كانوا فئة قليلة العدد، فإن الراهب المحقق پييرو أخذ جميع أهل فلورنسا بجريرة هذه الفئة القليلة، الأمر الذى أثار سخط السواد الأعظم من المواطنين. وطال النزاع واحتدم. وعندما انتهك المحقق قانون الجمهورية بأن ألقى القبض على سالنيسترو بادوسلى عضو الشركة المفلسة شاع التذمر. وفرض پييرو الحظر الكنسى على المدينة ولكن رجال الإكليروس والأهالى تحدوا هذا الحظر التعسفى. وإمعانًا فى هذا التحدى استقبلت الكنائس المصلين وأقامت قداديسها ومارست طقوسها، فنكلت محكمة التفتيش بأسقف المدينة وقساوستها. ولكن هذا الحظر أضر بمصالح فلورنسا الاقتصادية حيث إنه قطع الوشائج التجارية التى تربطها بالعالم الخارجى. وأخيرًا ركعت المدينة الثائرة على ركبتيها، فأرسلت فى ١٤ يونيه ١٣٤٦ مندوبين عنها للبابا كليمنت، وتعهد هؤلاء المندوبون بأن تتولى فلورنسا دفع الدين للكاردينال سانتا سابينا لدى شركة أكياجوتى بحد أقصى لا يزيد على سبعة آلاف فلورين، تدفع فى غضون ثمانية شهور، فتحنن البابا عليهم وأمر فى ٢٨ فبراير ١٢٤٧ برفع الحظر المفروض على المدينة.

وحتى تكتمل مهزلة التنابذ وتبادل الاتهامات بين الرهبان والمسؤولين عن محاكم التفتيش، فقد أقام الراهب پييرو بوصفه مفوضًا للبابا فى لوكا الادعاء ضد المحققين واتهمهم بالاستيلاء على أموال البابا، ولكن نيكولا رئيس دير سانت ماريا، قام برفع دعوى ضد الراهب پييرو الذى وجهت إليه تهمة ابتزاز أموال طائلة من الأهالى عن طريق اتهامهم بالهرطقة زورًا وبهتانًا. وفى مارس ١٣٤٦ طلبت السلطات الحاكمة استبداله بمحقق آخر هو الراهب ميشيل دى لابو، وحتى يتجنب الراهب پييرو المحاكمة آثر الهرب.

فلورنسا تركع

وفى عام ١٣٤٧ قام البابا بتخويل نيكولا رئيس دير سانتا ماريا سلطة توجيه الاتهام إليه

واتخاذ الإجراءات الكفيلة بطرده من الكنيسة. وقام بنشر أمر الطرد فى كل كنائس فلورنسا. ورغم الاتهامات الموجهة ضد پييرو، تمت ترقيته فى ١٢ فبراير ١٣٤٧ إلى أسقفية سانت أنجيلى فى لومباردى، ثم رقى فى ٩ يونيه عام ١٣٤٨ إلى مرتبة كنسية أعلى فى تريفينتو. وكل ما استطاع أهل فلورنسا أن يفعلوه هو تكرار التقدم بالتماسات المطالبة باختيار المحققين فى المستقبل من أهل المدينة وليس من الأغراب الذين لا هم لهم سوى ابتزازهم. وتمت الاستجابة لطلبهم مرة واحدة على أقل تقدير.

وفى عام ١٣٧٢ بذلت جهود حثيثة تهدف إلى إقالة الراهب تولومبو داسينيا محقق توسكانى من وظيفته بسبب مقت عامة الناس له. ولكن البابا جريجورى التاسع دافع عنه، وأمر فيليپو أسقف سباينا بتوفير الحماية له. ولكن يبدو أن البابا وجد نفسه مضطرًّا إلى الاستسلام لرغبة الشعب. وظل الراهب پييرو يعمل محققًا حتى عام ١٣٨٤، تصدى خلالها للمقاومة الشعبية التى اعترضت طريق محاكم التفتيش فى العديد من المدن الإيطالية الحرة.

وحذت مدينة بيستوبا حذو مدينة فلورنسا فى سعيها إلى حماية مواطنيها من بطش محاكم التفتيش عن طريق استنان قوانين محلية، فعاقبتها الكنيسة عام ١٣٧٥ بفرض الحظر الكنسى على توسكانى. وفى الوقت نفسه شكا الراهب پييرو من أن مدينة فلورنسا تعترض سبيل محاكم التفتيش، فطلب البابا جريجورى من حاكمها إلغاء هذه القوانين. ولكن فلورنسا لم تكترث مطلقًا بطلب البابا. وعبر شعب فلورنسا عن غضبه بتحطيم السجن التابع لمحاكم التفتيش وطرد المحقق من هذه المدينة. وفى أثناء أعمال الشغب ألقى المتمردون القبض على راهب يدعى نيكولا وعذبوه ثم حرقوه حيًّا. ودفعت أعمال الشغب البابا جريجورى إلى إصدار مرسوم فى ٣١ مارس ١٣٧٦ عبر فيه عن سخطه الشديد على مدينة فلورنسا. وبمقتضى هذا المرسوم تم فرض الحرمان الكنسى على المدينة بأسرها وجرد مواطنوها من حقوقهم المدنية، الأمر الذى عرض ممتلكاتهم للمصادرة وأشخاصهم للعبودية. وهكذا استطاع الكرسى الباباوى القضاء على مقاومة جمهورية فلورنسا لمحاكم التفتيش وإرغام هذه الجمهورية على الركوع على ركبتيها، مما اضطرها فى ٢٨ يوليه ١٣٧٨ إلى إلغاء قوانينها المقيدة لحرية وصلاحية المحققين. ولكن الانشقاق الدينى العظيم الذى شهدته الكنيسة المسيحية قلل من نفوذ البابا وسطوته فأعادت فلورنسا قوانينها الملغاة والقاضية بتحديد سلطات محاكم التفتيش إلى الظهور بصورة منقحة عام ١٤١٥.

ويُلقى المصير الفاجع لرجل الدين توماسينو دا فوليجنو المتوفى عام ١٣٧٧ ضوءًا على مساوئ محاكم التفتيش آنذاك، كما أنه يذكرنا بمصير ساڤونا رولا المأساوى. كان توماسينو رجلًا

تقيًّا ورعًا وزاهدًا فى متاع الدنيا يعامل نفسه بمنتهى الشدة. ودعا هذا الرجل التقى المدن الإيطالية المتنابذة إلى نبذ الصراعات المحتدمة بينها. وكان يشن حربًا شعواء على الفساد المستشرى بين الإكليروس والعلمانيين على حد سواء. وأغلب الظن أن سوء معاملة محاكم التفتيش له يرجع إلى هجومه الشديد فى بيروجنا على الحياة الدنسة والشريرة التى يحياها چيرالد رئيس دير مارموتيبر الراعى الباباوى للكنيسة الكاثوليكية. وكان هذا الرجل الصالح يتمتع بالشفافية والقدرة المذهلة على التنبؤ، كما كان ينتقل من مكان لآخر مبشرًا ونذيرًا. وعندما تشكك أهل سيينا فى قدرته على التنبؤ، تنبأ لهم بأن الصقيع سوف يسقط على هذه المدينة فى اليوم التالى، ولما تحققت نبوءته اتهموه بممارسة السحر. وأمسكت به محاكم التفتيش وكادت أن تقضى على حياته تحت وطأة التعذيب ولكن الجروح التى أصابته من جراء التعذيب اندملت فى الحال، فآمن الجميع بصلاحه وتقواه. وعاد الرجل إلى تبشير شعب فلورنسا وتحذيره من قرب حلول غضب الله عليه. وعندما هيج خواطر الناس، قامت محاكم التفتيش بإلقاء القبض عليه والزج به فى زنزانة، ظل قابعًا فيها دون طعام أو شراب، وأخيرًا أطلقت المحكمة سراحه باعتباره مخبولًا. وبعد موته اعتبره الشعب من أولياء الله الصالحين.

وخلال القرن الخامس عشر ضعفت هيبة محاكم التفتيش فى وسط إيطاليا مثلما ضعفت فى غيرها من الأماكن. وكما أسلفنا أسهم الانشقاق العظيم بنصيب وافر فى القضاء على هيبة النظام الباباوى فى إيطاليا على وجه الخصوص. وكاد موظفو الكنيسة يفقدون طاعة الناس واحترامهم. ولكن هذا الضعف الذى اعترى محاكم التفتيش لم يمنعها من إثبات وجودها فى پيزا عام ١٤٠٩، فانتقمت من رجل يدعى أندريانى وحرمته بسبب اعتياده الزراية بها.

ونذر البابا مارتن الخامس جهوده لاجتذاب منظمة الأخوة المارقة عن المذهب الكاثوليكى. وذكر البابا فى المرسوم الذى أصدره فى ١٤ نوفمبر ١٤١٨ أن المحققين لا يتمكنون من أداء عملهم ضد الهراطقة؛ لأن هؤلاء الهراطقة يحتمون بالسلطة الزمنية، ويتطاولون على المحققين الذين يحسون بالعجز أمامهم. وحاول هذا البابا أن يعيد الهيبة إلى محاكم التفتيش، فعين محققين جددًا ليحلوا محل المحققين القدامى. ولكن هذا أفضى إلى الزيادة فى ضعف هذه المحاكم، ورغم ما اعتراها من ضعف فقد طلبت الكنيسة تعيين المحققين فيها بانتظام ملحوظ، غير أن هذه المحاكم كفت عن ملاحقة المهرطقين وتقديمهم إلى المحاكمة. وليس أدل على اضمحلال سلطة المحققين وفاعلية محاكم التفتيش من أننا نرى بولونيا ترسل عام ١٤١٦ المحقق جابرتيل القادم من برشلونة إلى روما لتدريس اللاهوت فى دير مينرڤا. وطلب منه البابا پيوس الثانى (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤)

تعيين راعى كنيسة كى يحل محله ويؤدى عمله فى غيابه، وبعد مرور عشرة أعوام على ذلك، كان المحققون أنفسهم قد نسوا الإجراءات المتبعة عادة فى رفع الدعوى ضد المهرطقين. ففى بولونيا تولى الراهب سيمون دا نوفارا القبض على مويزاردو دا ساسولو للاشتباه فى هرطقته، ولكنه كان قد نسى الإجراءات القانونية المفروض اتباعها فى هذه الحالة، الأمر الذى دفعه إلى الكتابة إلى البابا بولس الثانى (١٤٦٤ ـ ١٤٧١) يطلب منه تزويده بالتعليمات الواجب اتباعها فى مثل هذه الحالات، وأصبح الوضع أضل سبيلًا فى روما مقر الكرسى الباباوى، فعندما ظهر أحد المهرطقين هناك لم تجد الكنيسة محكمة تفتيش قريبة لاستجوابه والتحقيق معه. ولا يوجد فى الإجراءات التى اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية ضد المصلح والثائر الدينى مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) دليل على قيام محاكم التفتيش باستجوابه. حتى المرسوم الباباوى الصادر ضد لوثر فى ١٥ يونيه ١٥٢٠ يخلو من أية إشارة إلى فحص محاكم التفتيش للمذهب البروتستانتى الجديد الذى كان لوثر يدعو إليه. وعندما تمت إدانة هذا المذهب علنًا فى ١٢ يونيه ١٥٢١، فإن هذه الإدانة لم تتم عن طريق محاكم التفتيش بل عن طريق مجموعة من رجال الإكليروس تضم أسقف أسكولى. بل إن الذى أمر بحرق كتب مارتن لوثر لم يكن محققًا فى محاكم التفتيش، بل أستاذًا فى كلية اللاهوت المقدس، هو الراهب كيبريانو. ومعنى هذا أن محاكم التفتيش توارت عن الأنظار.

وأيضًا فى جزيرتى صقلية اضمحلت محاكم التفتيش. ورغم اضمحلالها فإن خطابات الملك روبرت فى عامى ١٣٣٤ و١٣٣٥ والملكة چوانا الأولى فى عامى ١٣٤٢ و١٣٤٣ تدل على استمرار الكنيسة فى سياسة تعيين المحققين. ولكن الملوك والحكام اشترطوا على كل محقق ألا تزيد مرات القبض على خمسين حالة، واشترطوا أيضًا تسجيل عمليات القبض فى سجل أو مضبطة تسلم إلى البلاط الملكى، ولكن هؤلاء المحققين لم يكن لديهم سجون. فضلًا على أنهم لجؤوا إلى موظفى البلاط؛ كى يتولوا حبسهم وتوقيع التعذيب عليهم. ويبدو أن نشاط محاكم التفتيش آنذاك اقتصر على محاكمة اليهود. ويبدو أيضًا أن هذه المحاكم توقفت بعد ذلك عن محاكمة اليهود. ففى عام ١٣٤٤ أمر البابا كليمنت السادس مفوضه فى ناپولى أيميريكو كاردينال س. مارتينو بمعاقبة جميع اليهود المتنصرين الذين ارتدوا عن المسيحية، مما يوحى بعدم وجود محاكم تفتيش للمحققين فى مثل هذه الحالات.

ومع عودة اضطهاد المهرطقين إلى الظهور، استهدف هذا الاضطهاد اليهود بوجه خاص، فاستغاثوا بالملك فردريك الذى أصدر فى نفس العام (١٣٧٥) خطابًا ينحى فيه باللائمة الشديدة على المحققين آمرًا إياهم بإيداع سجنائهم فى السجون الملكية وليس فى غيرها من السجون، والاستعانة بقضاة مدنيين فى اتخاذ قراراتهم، وأنه يمكن الاستئناف ضد الحكم أمام محكمة عليا.

وبطبيعة الحال كانت هذه القيود تحد من صلاحيات محاكم التفتيش. وفى مدينة ناپولى تدل خطابات الملك شارل الثالث الصادرة عام ١٣٨٢ إلى الراهب دومينيكو دى استراجولا والراهب ليوناردو دى ناپولى على استمرار الكنيسة فى سياسة تعيين المحققين رغم ضعفهم. وقام البابا بتعيين الراهب سيمون دا أماتورى فى إحدى وظائف التحقيق الشاغرة. ولكن حياة الرجل كانت عاصفة. ففى عام ١٣٩٢ حل محله الراهب چوليانو دى ميليتو، ولكنه تمكن من استعادة وظيفته بعد أن أرغمه الملك مارتن عام ١٣٩٣ على إعادة الأموال التى ابتزها من بعض اليهود بحجة أنهم كانوا على علاقة غير شرعية بنساء مسيحيات. وطلب منه الملك عدم التدخل فى الأمور التى لا تخصه. وانخرط هذا الرجل المعوج فى مؤامرات أدت إلى طرده من وظيفته. ولكنه فى عام ١٣٩٧ استطاع استعادة مكانته وأصبح مفوضًا باباويًّا. وفى عام ١٤٠٠ عفا عنه مارتن وسمح له بالإقامة فى سيراكيوز، ولكنه حرمه من ممارسة مهمة التحقيق. وفى عام ١٣٩٥ نسمع عن شغل جوجليبلموا دى جيرجنين وظيفة محقق. وفى عام ١٣٩٧، نطالع أن الملك يعتمد حكمًا أصدره المحقق ماثيو دى كاتانيا، الأمر الذى يدل على خضوع محاكم التفتيش آنذاك إلى السلطة المدنية. وفى عام ١٤٠٢، صدر أمر ملكى أعطى اليهود الحق فى الاستئناف ضد الأحكام التى تصدرها محاكم التفتيش. ورغم الاستمرار فى سياسة تعيين المحققين، فإن أحكامهم لم تعد نهائية؛ حيث كان لا بد من قيام القاضى الملكى باعتمادها حتى تصير نافذة المفعول. ومن ثم نرى الملك ألفونسو فى عام ١٤٥١ يعتمد توقيع غرامة قدرها عشرة آلاف فلورين على اليهود كعقاب لهم على ممارسة الربا وارتكاب انتهاكات أخرى.

وكما شاهدنا عجزت محاكم التفتيش عن التصدى للهرطقة الوالديسيانية، وبحلول عام ١٤٢٧ كانت هذه المحاكم قد انهارت تمامًا بدليل أن الملكة چوانا قررت معاقبة اليهود فى مملكتها واتخاذ الإجراءات القانونية ضدهم. وبسبب انعدام فاعلية محاكم التفتيش لجأت هذه الملكة إلى الراهب چيوفانى دا كابيسترانو، واستعانت به فى إرغام اليهود على نبذ ممارسة الربا وكذلك لبس الشارة الدالة على يهوديتهم، فضلًا على إرغامهم على تسليم أية خطابات أو امتيازات تثبت أن الملوك السابقين منحوها لهم، ومنحت الملكة هذا المحقق الحق فى توقيع أى عقاب يراه مناسبًا مهما بلغت درجة قسوته. فى عام ١٤٢٨ اعتمد البابا مارتن الخامس تعيين الراهب نيكولو كاميسيو كمحقق فى بلدان بنيفنتو وبارى وكاياناتا. ولكن هذه السلطة لم تكن أكثر من حلاوة روح. فقد خفت حيوية محاكم التفتيش عندما تولت عاملة أراجون مقاليد الحكم فى ناپولى فى عام ١٤٤٢. ويخبرنا المؤرخ جيانون أن أمراء أراجون درجوا فى العادة على منع المحققين من دخول أراضيهم، وكانوا فى حالة السماح لهم بالدخول يطلبون منهم تقريرًا مفصلًا عن نشاطهم ويرفضون أية عقوبة

يوقعونها إلا بعد الرجوع إلى القضاة العلمانيين ثم الحصول على موافقة الملك على هذه العقوبة، مثلما شاهدنا فى جزيرة صقلية. وعندما قام البابا نيكولاس الخامس فى عام ١٤٤٩ بتعيين الراهب ماثيو دا ريجيو كمحقق فى محاكم التفتيش لإبادة اليهود المرتدين عن اعتناق المسيحية والذين انتشروا فى كل ربوع المملكة، يتضح لنا من خطاب التعيين أن هذه المحاكم ظلت لا تتمتع بأى نفوذ أو أثر لفترة من الزمن.

الراهب لوجاردى

وتزوير وثيقة الإمبراطور فردريك

وفى عام ١٤٥١ دبت الحيوية من جديد فى عروق محاكم التفتيش فى جزيرة صقلية بسبب خدعة ماكرة دبرها الراهب أنريكو لوجاردى المحقق فى محكمة تفتيش باليرمو. فقد لجأ هذا الراهب إلى تزوير وثيقة منسوبة إلى الإمبراطور فردريك الثانى ويرجع تاريخها إلى عام ١٢٢٤. وبمقتضى هذه الوثيقة المزورة أمر هذا الإمبراطور شعبه بتقديم يد العون والمساعدة للمحققين الذين يتصدون للهرطقة. وقد نسب إليه القول إنه لا يصح أن تؤول جميع ممتلكات المهرطقين وأموالهم إلى خزانة الملك بدون إثابة المحققين على المجهود الشاق الذى يبذلونه والأخطار الكثيرة التى يتعرضون لها. ولهذا قرر فردريك الثانى تقسيم المصادرات بالتساوى على الخزانة الملكية ومحاكم التفتيش والكرسى الباباوى. فضلًا على أن الوثيقة المزورة طلبت من جميع اليهود والكفرة تزويد المحققين ومساعديهم مرة كل عام بالضروريات التى يحتاجون إليها. واستطاع الراهب المخادع أنريكو بكل سهولة أن يقنع الملك ألفونسو باعتماد الوثيقة المزورة، ثم تولى الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا تأكيدها فى عام ١٤٧٧. ورغم أن هذه الوثيقة عادت بالنفع والامتيازات على محاكم التفتيش، فإن أحكامها ظلت خاضعة لموافقة السلطة المدنية عليها. وعندما اجتاحت المجاعة إيطاليا فى عام ١٤٧٤، طلب البابا سكستيوس الرابع (١٤٧١ ـ ١٤٨٤) من مندوبه السامى القيام بإرسال شحنة قمح كبيرة من صقلية إلى روما. وكتب البابا إلى المحقق الراهب سالفو دى كاستيا يأمره ببذل قصارى جهده لتنفيذ طلبه.

وعندما تمكن الملك الإسپانى الكاثوليكى فرديناند من الاستيلاء على مملكة ناپولى، لاحظ القائد الأعظم الإسپانى جونسالفو القرطبى أن سكان ناپولى يشعرون بالخوف والاضطراب ويخشون من إدخال نظام محاكم التفتيش الإسپانية فى بلادهم. ولهذا قطع على نفسه عهدًا بعدم إرسال أية محققين إلى هناك، واستمرت ناپولى فى اتباع نفس القواعد القديمة التى كانت تسير

عليها، وأصبح محظورًا القبض على أى شخص بدون أمر خاص من الملك بذلك، كما أنه كان محظورًا على أى محقق أن يمارس مهام وظيفته بدون الحصول على إذن من ممثلى الملك. ورغم هذه الضمانات التى أعطاها ملك إسپانيا إلى ناپولى، نرى أن المحقق العام الإسپانى دييجوديزا يرسل فى عام ١٥٠٤ إلى ناپولى محققًا وموظفًا لاستلام الممتلكات المصادرة ويحملان خطابات من الملك تخولهما الحرية فى ممارسة سلطتهما. ولكن يبدو أن جونسلانو الذى أدرك برم شعب ناپولى وململته ضد الوجود الإسپانى لم يسمح بدخولهما إلى الأراضى الإيطالية. ولكن السلطات الإسپانية كررت المحاولة مرة أخرى عام١٥١٠ متعللة بأن اليهود المتنصرين المطرودين من إسپانيا لجؤوا إلى ناپولى كملاذ آمن.

أرسلت السلطات إلى ناپولى المحقق أندريه بالاسيو. ولكن أهالى ناپولى ثاروا وأشهروا عليه السلاح، وتظاهروا ضده، الأمر الذى اضطر الملك الإسپانى فرديناند إلى التراجع. وكذلك أفضى تدخل الفرنسيين من أجل تدعيم محاكم التفتيش إلى تمرد سكان ناپولى فوعدوا الأهالى بعدم محاولة فرض محاكم التفتيش الرهيبة والمرعبة. بل إن البابا يوليوس الثانى (١٥٠٣ ـ ١٥١٣) تفهم هذا الموقف ووافق عليه. وهكذا حصلت الهرطقة الوالديسيانية وغيرها من الهرطقات على مهلة لالتقاط الأنفاس، غير أن التقدم الكبير الذى أحرزته حركة الإصلاح الدينى فى إيطاليا أثار غضب الكنيسة الكاثوليكية وحفيظتها وأدى إلى اشتعال فتيل الاضطهاد من جديد لوضع حد لحركة التنوير التى بدأت فى إيطاليا، ثم شملت كل أرجاء القارة الأوروپية.

* * *